مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

محرم 1442هـ - سبتمبر 2020

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من الشُّعراء الذين وظفوا الثقافة العربية في قصائدهم الشاعر الأمريكي جيمس لافلين **James Laughlin** (1914–1997). وهو شاعر وناشر شهير عُرف بدار نشر **New Directions** التي أسسها عام 1936 في نيويورك بنصيحة من صديقه الشاعر الحداثي المعروف عزرا باوند. الأعمال الأولى التي صدرت عن هذه الدار كانت مُختارات من الكتابات الحداثية الأمريكية في الشعر والنثر لأمثال ديلان توماس، وماريان مور، وتوماس ميرتون، ولورنس فيرلينجيتي. كما نشرت نيو دايركشنز الأعمال المُبكرة للعديد من الكتاب المشاهير مثل عزرا باوند، ووليام كارلوس ويليامز، وهنري ميلر.

رغم أنَّ لافلين اشتهر بكونه ناشرا، فإنه أيضًا عرف بصفته شاعرًا حداثياً تأثر بعزرا باوند. في موسوعة **Dictionary** of **Literary Biography** يؤكد جون هاريسون ودونالد دبليو فولكنر أن شِعر لافلين «جديد ومكثّف ويفيض بالذكاء والسخرية». لافلين نفسه، كما روى هاريسون وفولكنر، وصف شعره بأنَّه «نمط بصري عشوائي يتغيأ التوتر والمفاجأة عكس النمط الصوتي العامي للإيقاع.»

قصيدته التي أترجمها هنا قصيدة نثر خالية من الوزن والقافية تنسجم مع اتجاهه الحداثي. عنوانها «ما قاله لي البدوي العجوز»، وقد تضمنتها مجموعته الشعرية (**The Man in the Wall**) الصادرة سنة 1993 عن دار نيودايركشنز. والعجيب أن لافلين وضع هامشا للقصيدة يقول فيه: «ليس في اللغة العربية مُعادل دقيق لكلمتنا «تاريخ». قد يقول البدوي: «كان ما كان منذ زمن طويل». وهذا وهم من لافلين دون شك؛ لأنَّ كلمة تاريخ متحققة في العربية بمعانيها المُختلفة كما هي في اللغة الإنجليزية.

«ما قاله لي البدوي العجوز»

كان ما كان
مطرٌ غزيرُ
أهلك الحَرْثَ والنَّسْلَ
فلا عُشْبَ ولا نباتَ للحياة.
كانَ ما كان
أصواتٌ مُخيفةٌ أكثرَ من الرَّعْد
سقطتْ حين انهارتْ الأرضُ مختضّةً تحت قدمي
وسقطتْ شظايا الجبالِ على الصحراء
واحتلّ البحرُ اليابسة.
كان ما كان
أنْ اقتربتْ الشمسُ من الأرض
وظلّتْ تقترب أكثرَ فأكثر
حتى انخلع النظامُ السماوي
وجفّت البحيراتُ، والأنهارُ، والينابيع
ولم ينجُ غيرُ سَكّانِ الجبال الجليدية.
كان ما كان
أنْ عرفتْ هذه الشنائعَ الشديدة ضدَّ الطبيعة
هذه الخوارقَ القاتلة.

hilalalhajri@hotmail.com

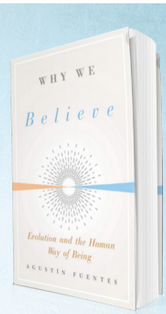

لماذا نعتقد
أغوسطين فوينتس

الكنيسة الغربية والمسألة الأخلاقية
جان فرانكو سفيدركوتسكي

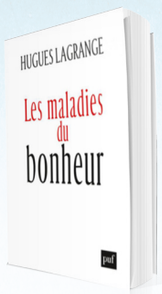

أمراض السعادة
هوغ لاغرانج

مكة.. سيرة مدينة غامضة
ماريا كيتشا

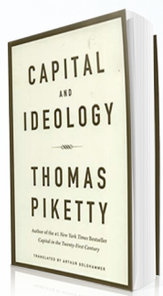

رأس المال والأيديولوجيا
توماس بيكيتي

تحت السيد: الرجال والنساء والعرابون في مافيا الزراعة
ماركو أوميتزولو

علم الخلود...
أليخاندرو نافارّو ياني

سبينوزا والطريق إلى السعادة
فريديريك لونوار

الأعمال المصرفية في زمن العولمة
تي. رفيندران

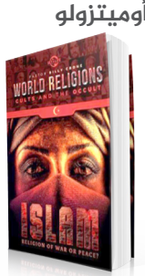

هل الإسلام دين حرب أم سلام
القسيس بيلي كرون

إصدارات عالمية جديدة

صفحة 22 و 23

لماذا نعتقد
أغوسطين فوينتس

مُحمَّد الشيخ *

ما فتئ الاعتقاد ـ ومعه الإنسان المعتقد Homo Credens ـ يحظى باهتمام العديد من علماء النفس والإنسان، ومن الفلاسفة والمفكرين الدينيين. وقد صدر عام ٢٠١٩ كتابان في هذا الموضوع هامان لعالمين من كبار علماء الأنثربولوجيا في زمننا هذا: كتاب «لماذا نعتقد: التطور والسبيل البشري في الوجود» لأغوسطين فورينتس، وكتاب «المعتقدون: الإيمان في الطبيعة البشرية» لملفين كونر. الأول كتاب «يذهب واسعا»، والثاني كتاب «يذهب عميقًا».

ينظر الأول في الشروط التطورية والدينامية التي قادت الإنسان من «كائن بيولوجي» إلى «كائن ثقافي» (صاحب اعتقادات)، مُظهرا هذا الكائن الثقافي وهو يُبدي عن طبعه في «عش» مبني بالأساس على الاعتقادات في ميادين الاقتصاد والحب والدين. ويفكر الثاني في مختلف المُعالجات الإنتربولوجية والعصبية والفلسفية والنفسية لتنوع الخبرات والمعتقدات والممارسات التي تسمى «دينية» و«روحية» و«إيمانية».

يفتتح كتاب «لماذا نعتقد» بعبارة مُشْكَلَة تلخص الطابع الإشكالي للكتاب برمته: الاعتقاد هو أعظم وأوعد وأخطر قدرة طورتها البشرية. ذلك أن الاعتقاد . بمعنى المهارة على الالتزام شغفا بفكرة معينة . يشكل، من جهة أولى، أمرا جوهريا بالنسبة إلى الوجود البشري في هذا العالم، لكنه من جهة أخرى، قد يستحيل الاعتقاد . هذه النعمة العظيمة . إلى نقمة وإلى خطر محدق.

ينطلق المُؤلف مما يعتبره حقيقة مقررة أكدتها تطورات العلوم المعاصرة، أكانت علوماً تدرس الكائن البشري في حاضره . البيولوجيا، علم الجينات، علم التطور . أم علوما تدرس الإنسان في ماضيه . الحفريات، الأركيولوجيا، الإنتربولوجيا . حول كيف أمسينا . معشر الكائنات العارفة . بشرا. وقد أثبتت هذه المعارف أن البشر ما وجدوا لا من باب «الصدفة» ولا من باب «المعجزة»، وأن تفسير ما أمسوا عليه ولماذا أمسوا على ذلك إنما هو مروية معقدة بتعقيد مدهش ودينامية ومثيرة غير منتهية. وهي مروية يحتل فيها «الاعتقاد» منزلة القطب من الرحى، باعتباره ثمرة هذا التطور وعلته في الآن نفسه.

وبما أنَّ التعويل على تخصص واحد قد يعد بمثابة «سوء تغذية» بالنسبة إلى الباحث المنفتح الأفق، فإنَّ عالم الإنتربولوجيا الذي هو فوينتس يقر بأنه فضلاً عن ثلاثين سنة من البحث الميداني اهتم فيها بأجساد بني البشر في الماضي والحاضر، وبأفعالهم، وببيئاتهم، وذلك في صلة بالحيوانات الرئيسات، جائبا العالم عرضا وطولا، ومشاركا في النقاشات الدائرة حول البشر وتطورهم؛ فإنه لطالما انخرط في مُشاركات مثيرة ومنيرة وعجيبة مع طائفة من العلماء والفلاسفة وعلماء اللاهوت وغيرهم من الدارسين؛ وذلك في إطار منظور عابر للتخصصات تتخاصب فيه الأفكار وتتناتج فيه المناهج وتتلاقح فيه الأسس النظرية ... مؤلفاً بذلك بين كونه عالمَ تطور وعالمَ علوم اجتماعية، ساعياً إلى تطوير فهم أفضل لما يعنيه أن تكون «إنسانا» في الزمن الفائت والحالي والآتي.

والجديد الذي يعلن عنه المؤلف في هذا الكتاب، سعيه إلى أن يتقاسم مع القارئ «مروية» عن التطور تضرب بجذورها في مسلك علمي، في وقائع الأجساد والجينات والبيئيات والتواريخ والمسلكيات، وذلك من دون أن يسقط هو في نزعة اختبارية علموية ضيقة، وإنما ينفتح على ما يسميه «المرويات الفلسفية». وما يُميز بين مرويته هذه وباقي المرويات حول تطور الإنسان هو أنها تربط بين مسار البشرية ومقدرتنا المميزة على الاعتقاد. ذلك أن الاعتقاد، كما يقول المؤلف، مقدرة بشرية فريدة. والباحث يستقصي في هذا الكتب كيف انتهينا . معشر البشر . إلى الاعتقادات . خلال تاريخ يعود إلى مليوني سنة . إلى الأديان والفلسفات السياسية والتكنولوجيات المعقدة، وذلك عبر مسار ثلاثي الخطوات: في البدء كانت مقدرة الإنسان على التخيل التي قادته إلى ابتكار الأدوات البدائية، محوّلة تمثله إلى واقع، ومكسية تخيله حقيقة، وهي المقدرة التي أهلت الإنسان إلى إبداع مستقبلاته. ثم سرعان ما انتقل في لحظة ثانية إلى «صناعة المعنى»؛ إذ بعد الإنسان الصانع جاء دور الإنسان صانع المعنى جماعيا، وذلك بما غيّر من إدراكه وخبرته . الإنسان الفنان . بحيث بات يتشاطر المعاني، وبحيث بدأ يعزو المعاني إلى الأشياء التي يمكنه أن يستخدمها. وأخيرا، في لحظة ثالثة، بتنا أمام الإنسان المعتقد؛ أي ذاك الإنسان الذي شأنه أن يهتدي وأن يسترشد بما يسميه المؤلف «الأنساق الاعتقادية». وهي جماع أفكار وخيالات الإنسان المعتقد.

ما معنى الاعتقاد؟

في هذ الكتاب، يستخدم المؤلف لفظ «الاعتقاد» لكي يدل به على معنى أكثر من مجرد التصديق والثقة في شيء أو في شخص، ويجده مفهوما أثرى من مجرد حالة ذهن تقوم على التصديق والإيمان والتسليم. ذلك أن الاعتقاد إنما هو سبيل الإنسان إلى التخيل وإلى الصيرورة، بحيث لا يرتهن هو إلى الواقع اليومي ارتهاناً بقدر ما ينفتح على الأمل انفتاحا؛ أي على ما لا يمكن أن يُعايَن ولا أن يُدرَك ولا أن يُقاس. ومن ثم لا يتعلق الاعتقاد بالواقع تعلقا أعمى، وإنما يشي عن مقدرة الإنسان على التخيل والخلق والأمل والحلم وعلى نفخ العالم بالمعنى.

وهنا يبدد المؤلف خطأ شائعاً: ما أن يسمع معظمنا كلمة «اعتقاد» حتى يتبادر إلى ذهنه ربطه بالدين. وما يراه المؤلف هو أنَّ المقدرة البشرية على الاعتقاد لا ترتهن بالدين وبالروحانية وبالشعائر دون سواها؛ فلا يتعلق الأمر بالإيمان بشيء أو بشخص. ولا ينكر المؤلف أن الإيمان الديني . أو بالأحرى الاعتقاد الديني . عنصر عظيم في المروية البشرية، وأنه متعلق تعلقا مباشرا بمقدرتنا على الاعتقاد. لكنه لا يرى أن من شأن العالم أن يناقش أي الاعتقادات الدينية محق وأيها مبطل. ومن شأن التركيز على الدين أن يكون تضييقا لواسع. فما الدين إلا قدر ضئيل من إمبراطورية الاعتقادات، من مقدرة بشرية عميقة مكينة على الاعتقاد في الاقتصاد والحب والدين وغيرها من الميادين. ولذلك عادة ما يردد هو القول: «كلنا معتقدون، لكن ما كلنا بمتدينين»، و«لا وجود لغير المعتقدين». وحين يقول هو ذلك، فإنه يعني ما يعنيه. ذلك أنه عبر مليوني سنة من التاريخ التطوري، تطورت ملكة الاعتقاد بحيث باتت مكونا مركزيا، وأمست «حقيبة أدواتنا» نحن معشر البشر. وإنما يوجد الاعتقاد وفي قلب العش البشري، وهو الطريقة التي حقق بها أسلافنا النجاح في العالم، كما أنه الطريقة التي لا زلنا نسير على هديها. وفضلاً عن هذا،

فأن الاعتقاد هو الذي قادنا بالقدر نفسه إلى صنوف من الفشل لا تصدق وإلى الفظائع والعنف والدمار ... وبالنسبة إلى البشر، الاعتقاد جزء مما نحن إياه، وقد بدا مقدرة عبر تاريخنا التطوري. إنما نحن بشر، ومن ثمة نحن نعتقد. لكن ما نعتقده، ما نفعله باعتقاد، هو ما سوف يشكل مستقبلنا، الذي نأمل أن يكون نحو الأفضل، لكنه أيضاً قد يكون نحو الأسوأ.

في محاسن الاعتقاد ومساوئه

عادة ما يركز المؤلف على سمتين من سمات الاعتقاد: الاعتقاد أمر إيجابي، وهو شيء باعث على الأمل. لكن ثمة ما يسميه «مخاطر الاعتقاد» التي هي بمثابة «نقمة» كامنة في طي «نعمة». وهي مخاطر في عداد الثلاثة: ثمة الاعتقادات الخاطئة بخصوص العالم الذي نحيا فيه وعلاقاتنا به والتي من شأنها أن تترتب عنها تهديدات قاتلة لنوعنا البشري ولمعظم الأنواع الأخرى. وتلك هي الاعتقادات التي تذهب إلى أن على العالم أن يُستَغَلَّ لصالحنا. هو ذا المفهوم الاستعمالي للعالم الذي من شأنه أن يصيِّر الأرض «ذلولة للإنسان». وهو الاعتقاد الذي قاد العالم في القرن الواحد والعشرين إلى هيمنة السوق عليه؛ بحيث ما من شيء إلا وبات قابلا للتسليع والتبضيع والتسويق، وبحيث صار لفظ «الكوكب» يدل حصريا على «كوكبنا» . نحن معشر البشر . وليس على كوكب الأنواع الأخرى أيضا.

وثمة الاعتقادات السياسية والاقتصادية والعرقية والقيمية والجندرية التي قادت إلى عالم من البغضاء بين ساكني العالم من البشر؛ بحيث بات اليوم حوالي ثمانية في المائة من ساكنة العالم تملك ما يزيد عن خمس وثمانين في المائة من ثروة العالم. وقد تولدت عن هذا أشكال من الظلم عميقة؛ بحيث صرنا على مرمى فقدان كل رجاء في عدالة متشاطَرة.

وثمة إفراطات الأنساق الاعتقادية التي تأدت إلى الأصولية، بما في ذلك الأصولية العلموية. وهي سيرورة باتت تعيق مقدرتنا . نحن معشر البشر . على التعاون في العمل وعلى نقل البشرية نحو مستقبل أفضل. وما يذهب إليه المؤلف بهذا الصدد أنَّه ما كان من حقنا استعمال أنساق الاعتقاد العلموية بغاية إنكار إمكان أنساق اعتقاد أخرى، والتنكر لكل ما خالفها؛ بما في ذلك الأنساق الدينية. ذلك أنَّ ثمَّة سعي حثيث إلى الاستعاضة عن المرويات الأسطورية والدينية والفلسفية بمروية واحدة ووحيدة: المروية العلمية؛ وذلك كله بتعلَّة أن الأنساق الأخرى إنْ هي إلا أكاذيب وأوهام ليس إلا. وخطأ هذا الموقف أنه يمنع ولا يجمع، ويفرق ولا يوفق، ويفشل في الاعتراف بمهارة أنساق الاعتقاد في التعاون والإدماج والتبادل والتأثير النافع في بعضها البعض. أما

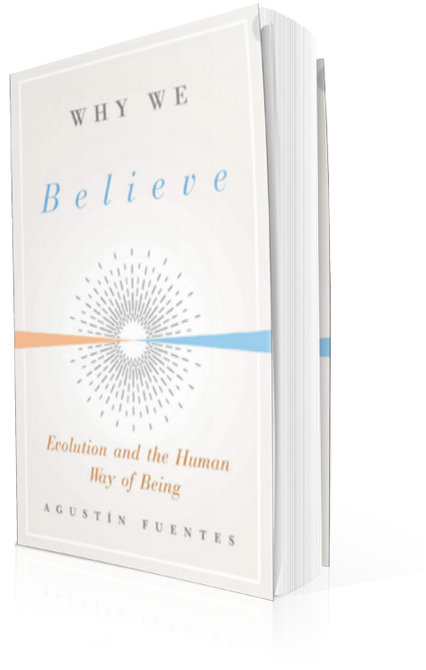

في ما يخص الأصولية الدينية، فيرى المؤلف أن معنى الأصولية أنها انتماء حرفي إلى بعض الكتابات المُقدسة والعقائد والأيديولوجيات، وقد امتزجت بمسيس حاجة إلى التمييز بين أهل الولاء وأهل البراء، وأن الأصولية الدينية إنما وتقوم على طهارة الفكر.

والحال أنَّه ما من أصولية . أكانت دينية أم علمية أم سياسية أم اقتصادية . إلا وتشكل خطرا على البشرية. إذ من شأن الأصولية أن تختزل بالتعريف البنية التحتية للاعتقاد: مقدرتنا على التخيل والتجريب والابتكار والتعالق مع الآخرين والتفاعل معهم. هذا مع تقدم العلم أن هذه المهارات هي التي منحت البشرية فرصا عظيمة للنجاح. فما من أصولية إلا وهي إفراط في استخدام المقدرة البشرية على الاعتقاد وسوء استخدام لهذه المقدرة.

هذا من مساوئ الاعتقاد الواقعة والممكنة، أما عن محاسن الاعتقاد، فينطلق المؤلف في مُعالجتها من ملاحظة أن الاعتقاد يمكن أن يكون مهماً إن نحن حاولنا حمله على ذلك. ذلك أن الاعتقاد أساسي لاشتغال الاقتصادات والسياسات القومية، ولتلاحم الجماعات وديناميتها الاجتماعية، وللتواريخ والعوائد الاجتماعية؛ وكل هذه لا تتم بلا اعتقادات؛ إذ كلها تتطلب بعض مهارات وسياقات اعتقادية باعتبارها المحفز والداعي والحاض. فمثلا، الورقة الخضراء . الدولار . تبقى مجرد ورقة إن لم نكن نعتقد بالنظام الذي يثوي خلفها. ذلك أن من شأن الاعتقاد أن يبنين الطريقة التي نتصرف بها ويهكلها، وأن يلهم كيف ينبغي أن نتحرك في هذا العالم.

وفي هذا جواب عن السؤال: لماذا الاعتقاد؟ هل لا زال الاعتقاد مهماً اليوم؟

لئن كانت بعض الاعتقادات سبباً في ما وصلنا إليه من مآسٍ، فإنَّه لا بديل عن الاعتقادات سوى اعتقادات بديلة. إذ لا فعل من دون اعتقاد يستهدي به؛ أي من غير مروية يسترشد بها. ومن هنا تأتي أهمية الاعتقادات في حياة الشعوب. حيث يمكن أن تكون الاعتقادات حاضة على الفعل الطيب. على أنه حتى الأنساق الاعتقادية العلمية تحتاج إلى أنساق اعتقادية غير علمية لمؤازرتها؛ وذلك كما يحدث، مثلا، حين يضطر السياسيون والزعماء والعلماء إلى إقناع الأهالي بأهمية الحفاظ على البيئة بأن يبدعوا لهم مروية . نسق اعتقاد . إبداعا. وههنا تقف العلوم إلى جانب الإنسانيات وإلى جانب الدين. والمستقبل يكمن في التعاون بين الأنساق الاعتقادية، وليس في التنازع بينها.

فما نعلمه اليوم هو أن المقدرة على الاعتقاد، ومختلف السبل التي تترجم بها عن هذه المقدرة، أمر جوهري للتطور البشري. وقد لعب دورا محوريا في نجاحنا بحسباننا نوعا بين الأنواع. لكن الجديد اليوم هو أن هذا النجاح جعلنا وجها لوجه مع الآثار الكارثية المحتملة على البشرية وعلى الأنواع الأخرى وعلى العالم.

ويختم المؤلف كتابه بالقول: أن نعتقد، ذاك التزام واستثمار وتعلق بطرائق جدد في التخيل والتطور، ولا أحد منها يحتاج إلى أن يتجذر في الواقع المادي، ولكن كلها يمكن أن تُطَعَّم بالأمل. إنما الاعتقاد سيرورة بشرية أعمق وأميز، وما كان هو «صدفة» ولا «إعجازا»، وإنما هو ثمرة وسيرورة لتاريخ البشر وتطور للعش البشري. كانت قد قالت الفيلسوفة الفرنسية سيمون دو بوفوار ذات يوم: «تكتسي حياة إنسان معين قيمة بقدر ما يعزو بدوره قيمة إلى حياة الأغيار عن طريق المحبة والصداقة والاستنكار والتعاطف». والحال أنه في رأي المؤلف ما من سبيل أعظم لمنح القيمة إلى ذواتنا وإلى أغيارنا أفضل من الاعتقاد. ويضيف المؤلف قائلا: آمل أن نستطيع أن نوجه اعتقاداتنا وقيمنا المتبادلة نحو تخيل مستقبل أفضل ورجاء حدوثه وإمكان إبداعه.

- عنوان الكتاب: لماذا نعتقد
- اسم المؤلف : أغوسطين فوينتس
- دار النشر: مطابع جامعة ييل/ ومطابع تامبلتون
- سنة الإصدار : 2019
- عدد الصفحات: 266

* أكاديمي مغربي

الكنيسة الغربية والمسألة الأخلاقية
جان فرانكو سفيدركوتسكي

عزالدين عناية *

بهذه العبارات يستهلّ الكاتب جان فرانكو سفيدركوتسكي كتابه الجديد «الكنيسة الغربية والمسألة الأخلاقية»، الذي يأتي بمثابة مانيفستو احتجاج على أوضاع تعيشها الكنيسة الكاثوليكية منذ سنوات: «ثمّة ورمٌ خبيث يعشّش منذ قرون في جسد الكنيسة. وهو عادة متجاهَل، أو غير متابَع، وكيفما كان الأمر فهو لم يُعالَج عبْر التاريخ بشكلٍ جادّ، ولم يُهاجَم من قِبل رجالات الكنيسة، ألا وهو مرض الانتهاكات الجنسية. وهكذا انتهى إلى خلْقِ حالةٍ كارثيةٍ في الأوساط الكاثوليكية. ملحقًا ضررًا فادحًا بمصداقية الرسالة الدينية وبمؤسّسة الكنيسة، إلى حدّ تهديده إيمان المؤمنين».

فخلال العقدين الأخيرين علَتْ أصوات منادية بإصلاح الأوضاع الخُلقية داخل الكنيسة، وإعادة بناء الأوضاع الجنسية من حيث علاقة الراهب والراهبة بموضوع العزوبة. فأمام الضرر الذي مسَّ مصداقية الكنيسة، جرّاء الاعتداءات الجنسية الحاصلة في حقّ القاصرين، جرت معالجات متنوّعة للموضوع. نستعرض في هذا المقال كتابًا في الشأن لأحد الأصوات المهمّة داخل الكنيسة، وهو الكاتب والصحفي جان فرانكو سفيدركوتسكي، رئيس التحرير الأسبق لصحيفة «الملاحظ الروماني»، اللسان الناطق باسم حاضرة الفاتيكان. يُوزِّع المؤلّف كتابه على عشرة معنونات، يتطرّق فيها إلى أهمّ المراحل التي عاشتها الكنيسة مع قضايا التجاوزات الجنسية.

حيث يشير سفيدركوتسكي بصريح العبارة، في مستهلّ الكتاب، إلى رجال دين في الكنيسة خانوا قسم الوفاء، القسم الذي يُدلي به كلّ من يختار الانضمام طوعًا إلى سلك الرهبنة. فقد بلغت تداعيات الوضع الأخلاقي المتردّي داخل الكنيسة حدّ إعلان البابا المستقيل بندكتوس السادس عشر (راتسينغر) أنّ الاضطهاد الأكبر الحاصل في الكنيسة لم يأتِ من الأعداء في الخارج، بل من اقتراف الخطيئة داخل الكنيسة. وهي خطيئة يعتبرها جان فرانكو سفيدركوتسكي أكثر ضررًا، لأنّ عددًا من الأساقفة والكرادلة، سواء في الماضي أم في الحاضر، أخفوا تلك المساوئ المقترَفة في أوساط الرهبان. واكتفوا في ذلك بنقل المورِّطين من كاتدرائية إلى أخرى أو من خورنية إلى غيرها، بما سمح لهم، في غالب الأحيان، باقتراف انتهاكات إضافية، وإلحاق أضرار بضحايا جُدد وإثارة فضائح أخرى دون أن ينالوا العقاب الرادع. والواقع أنّ مسألة الاعتداء على الأطفال، منذ سنوات، تخبو وتطفو دون حلول جذرية، ودون أن تخوض فيها الكنيسة مراجَعة لاهوتية وتاريخية. فخلال السنة المُنقضية أثار تقرير «كبار المحقّقين» في بنسلفانيا جدلا واسعًا بما كشف عنه أنّ ثلاثمئة من الكهنة، وعلى مرّ سبعة عقود، قد اقترفوا ما يزيد عن ألف اعتداء كان ضحاياهم فيها من القاصرين. وهو ما دفع البابا فرنسيس ماريو برغوليو إلى دعوة رؤساء المؤتمرات الأسقفية في كافة أرجاء المعمورة، في أواخر فبراير ٢٠١٩، إلى الحضور في روما لتداول المسألة بحزم، لكن الاجتماع لم يتمخّض عن قرارات فاعلة وإنّما عن مجرّد توصيات.

يعود بنا سفيدركوتسكي في كتابه إلى جذور المسألة الخُلقية. حيث يسجّل تاريخ الكنيسة سلسلة من الانتهاكات والاعتداءات الجنسية على الأطفال، كان مقترفوها كوكبة من البابوات. فمنذ العام ٣٦٦م، من البابا داماسوس الأول وإلى غاية العام ١٥٥٠م مع البابا يوليوس الثالث، نَعُدّ سبع عشرة حالة اعتداء. وخلال العام ١٠٥١م ظهر كتابٌ لافت تناول الممارسات الجنسية غير المشروعة في أوساط رجال الدين بعنوان: "Liber Gomorrhianus" (كتاب عمّورة)، وعمّورة هي عنوان الفساد الخُلقي في المنظور التوراتي كما روى سِفر التكوين. المؤلف هو بيار دامياني، وهو رجل دين من أصوات الإصلاح الجريئة في الكنيسة الكاثوليكية، عالجَ الموضوع بوضوح وتجرّد. لكن مشكلةَ دعوة بيار دامياني الخُلقية أنّها اصطدمت بوضع سوسيولوجيٍّ ألمّ بكنيسة القرون الوسطى، حيث فرَضَ الإقطاعُ تقليدًا، كان فيه رجال الدين يُعيَّنون من قِبل المتنفِّذين أو تتمّ تزكيتهم من قِبَلهم. ما جعل ولاءات الأساقفة مرهونة للسّاسة وأصحاب المال، قبل أن تكون للكنيسة، وهو ما زاد من تفاقم الأوضاع.

لكن الكنيسة، كما يوضّح جان فرانكو سفيدركوتسكي، ما كانت واضحة الخيارات منذ القديم مع المسألة الجنسية، وهو ما خلّف اضطرابًا وضبابية إلى اليوم. ففي الوقت الذي جرى فيه التحوّل من اللاّعزوبة إلى خيار العزوبة، بقيت منطقة رمادية داخل الأوساط الكَنَسيّة بشأن المسألة الجنسية. ويقصد سفيدركوتسكي بالمنطقة الرمادية انتشار ما كان يُعرَف بـ«المعاشَرة الكَنَسيّة»، حيث احتفظ العديد من رجال الدين بجواريهنّ وخليلاتهنّ اللواتي كنّ يَقُمن مقام الزوجات. لكنّ ما يثيره «كتاب عمّورة» آنف الذكر، وبشكلٍ عامٍّ، هو الاضطراب في العلاقات الجنسية، حيث دعا البابا ليون التاسع إلى التدخّل الفوريّ لعزل الأساقفة المنتهكين للضوابط الدينية بخصوص المسألة الجنسية، التي لا تقف عند حدّ السعي لامتلاك شريكة حياة، بل تمتدّ إلى الاعتداء على القاصرين داخل المدارس والنوادي التابعة للكنيسة، ومظاهر الجنسية المثلية، التي باتت بمثابة الأمر الواقع المسكوت عنه.

ففي القرن السادس عشر، وتحديدًا خلال العام ١٥١٧م في عهد البابا ليون العاشر، كان فحوى بعض صكوك الغفران الرائجة يتضمّن الصفح عن الرهبان مما اقترفوه من خطايا، التي تشمل من ضمن ما تشمل اغتصاب النساء، والاعتداءات الجنسية على القاصرين. سجّل التاريخ قيمة تلك الصكوك التي تبلغ ١٣١ ليبري و١٥ صولدي بالعملة السائدة في ذلك العهد.

ما من شكّ أنّ الأجواء الجنسية داخل الكنيسة، مثل عدم الالتزام بالعزوبة كخيار كهنوتي، والاحتفاظ بخليلة أو جارية بعيدًا عن الأعين، ومُمارسة اللواط، أو الاعتداء على القاصرين، هي مسائل تعود بالأساس وفي جانب كبير منها إلى تنكّر ونفي للعلاقة السوية والطبيعية للفرد مع الإشباع الجنسي، أكان امرأة أم رجلا. وصحيح تختلف مراتب هذه الانتهاكات في المنظور الكنسي، ولكن غالباً ما جرى التعميم بشأنها وعدم التعامل معها بواقعية لتخطّيها. كان الإصلاح البروتستانتي، في فترة لاحقة، أكثر جرأة وواقعية في مُعالجة المسألة من خلال إتاحة إمكانية الجمع بين خيار الرهبنة والمعاشرة الزوجية، واعتبار الحالتين لا تتناقضان. وقد مثّل المصلح مارتن لوثر عنوانًا لهذا الخيار الإصلاحي، حيث أنكرَ الطابع المتَّبع لخيار الرهبنة، وعلى مستوى عملي، عدَّ نموذج الحياة المسيحية متمثّلا في العائلة لا في التبتّل والإحجام عن الزواج. فهذه المفاهيم تتناسق مع تجربته الشخصية، حيث تزوّجَ الراهبة كاثرين دي بورا، وأنجب منها ستة

أبناء.

في قسم مواز للقسم السابق يتناول سفيدركوتسكي الأوضاعَ الحديثةَ. وضمن هذا السياق، جرى التطرّق إلى مسألة الاعتداءات الجنسية على القاصرين في وثيقة صادرة عن المكتب البابوي (سانتوفيسيو) بعنوان «جريمة الاستدراج»، وذلك خلال العام ١٩٢٢. لم تنل الوثيقة حظّا من الاهتمام، وتوارى أثرُها بتوالي السنين. وبعد أربعين سنة من صدور الوثيقة استعاد البابا يوحنا الثالث والعشرون فحوى تلك الوثيقة، لكن بدون أثر يذكر أيضًا. فقد كان العديد يمنّون أنفسهم بأن تعيدَ قرارات مجمع الفاتيكان الثاني رسمَ خريطة العلاقات الجنسية داخل الأوساط الكَنَسيّة؛ لكن قرارت المَجْمع جاءت تقليدية بشأن هذه المسألة، ولم تُحدث أيّ تحوير كما كان مرجوّا. فالوضع الجنسي غير السويّ، كانت الكنيسة تحفل به، قبل المَجْمع وبعده، دون معالجة جريئة للمسألة. وفي ستينيات القرن الماضي إبّان انعقاد المجْمَع، كانت حالات الاعتداء على القاصرين تتراوحُ بين ثلاث وستّ حالات في المئة في أوساط رجال الدين، وتواصَلَ التغاضي عن المسألة وكأنّها غائبة تماما.

وفي ظرفنا الحالي تبدو آثار الأزمة الأخلاقية للكنيسة حاضرة بقوة في المجتمعات الغربية. ففي ألمانيا، على سبيل الذكر، فاقمت آثار أحداث التحرّش والاعتداء الجنسيّ على الأطفال إلى ٤٠ في المئة عدد الذين هَجَروا الكنيسة الكاثوليكيّة، على ما يورد الكتاب. ما سبّب سحْبَ ١٨٠ ألف ألمانيّ عضويتهم من الكنيسة في العام الماضي، أي بزيادة ٥٠ ألفا مقارنة بالعام ٢٠١٨، وفق ما نشره الملحق الدينيّ ليومية «دي زايت» الألمانية. وفي الأبحاث التي أنجزها فريق من الباحثين تابع إلى مؤسسة «جون جاي ستادي» بنيويورك بتكليف من المؤتمر الأسقفي في الولايات المتحدة، خلص الباحثون إلى أنّ ما بين سنتيْ ١٩٥٠ و ٢٠٠٢ بلغت نسبة الذين توجّهت إليهم تُهَم الاعتداء على الأطفال ٤،٣ في المئة من رجال الدين، يقيمون في الولايات المتحدة، بما يعني ٤٣٢٩ مقترفا لجرم. وهي تجاوزات كلّفت الكنيسة أكثر من ٢،٦ مليار دولار جبرًا للأضرار في أعقاب الأحكام القضائية.

لكن ضراوة الانتقادات التي تعرّضت لها الكنيسة في الخارج خلال العقد الأخير، دفعت إلى مراجعات داخلية لم تستثنِ حتى كبار رجالات الكنيسة. فعلى سبيل المثال شغل الكردينال أنجيلو سودانو منصب سكرتير دولة الفاتيكان، خلال العام ٢٠٠٦، بما يضاهي منصب وزير الخارجية، وقد توجّهت له أصابع الاتهام بتغطيته طويلا على مارشال ماسيال، مؤسس تنظيم «ليجيونواري دي كريستو» (فيالق المسيح)، الذي تبيّن لاحقا تورّطه الفاضح في مسائل أخلاقية. ولم يُنْتقد سودانو فحسب

بسبب تعطيله سير الإجراءات القانونية المؤسّساتية أثناء التحقيق مع مارشال ماسيال، بل اُتُّهِم أيضا بتعطيل الإجراءات بشأن رئيس أساقفة فيينّا، الكردينال هانز هيرمان غروير، المتّهَم في قضايا جنسية ضد قاصرين لمّا كان مدير مدرسة تعليمية.

ولو جئنا إلى رصد الأوضاع في إيطاليا، يورد كتاب «الكنيسة الغربية والمسألة الأخلاقية»: حين كانت مسألة الاعتداءات الجنسية مطروحة بقوة في الولايات المتحدة، خصوصا في أعقاب بثّ شريط وثائقي عرضته قناة «بي بي سي» عام ٢٠٠٦، وهو بعنوان «الجرائم الجنسية والفاتيكان»، خيّمَ صمتٌ في الأوساط الإعلامية في إيطاليا. ولم يتسنَّ التطرّق إلى المسألة سوى في أعقاب سنة من نشر الطبيبة النفسانية فانيا لوشيا غايتو شريطَ فيديو في مايو ٢٠٠٧، عرضت فيه وقائع جرائم جنسية على صلة بالاعتداء على القاصرين، أتبعته بكتاب نُشر بعنوان «رحلة في الصمت» في الغرض نفسه. منذ ذلك الحين كُسر الحصار الإعلامي وبدأت وسائل الإعلام الإيطالية تتطرّق إلى المسألة بإسهاب.

وكما يورد سفيدركوتسكي لا تنحصر الاعتداءات ضدّ القاصرين ببلد معيّن، بل تشمل بلدان عدّة، مثل إيرلاندا، والولايات المتّحدة، وأنجلترا، والنمسا، وسويسرا، وإيطاليا، والبرازيل وتتمدّد إلى إفريقيا. ففي كينيا ٣٠ بالمئة من المورّطين في الاعتداءات الجنسية على الأطفال هم من الإيطاليين، ونسبة هامة من بين هؤلاء هم من رجال الدين، بناء على ما أورده فيروتشو بينوتّي في كتاب «الهولوكوست الأبيض» المنشور في دار ريتزولي الإيطالية ٢٠٠٨. فمع تعدّد فضائح الاعتداءات الجنسية التي دشّنتها بداية الألفية الثالثة، ما عاد المتّهَم بإثارتها خصوم الكنيسة من ماسونيين وعلمانيين متشدّدين، على ما هو معتاد، بل باتت قضية رأي عام أمام ضراوة الاعتداءات وتمدّد الظاهرة. فبين العام ٢٠٠٩ والعام ٢٠١٠ سجّلت عشرات الأبرشيات الكاثوليكية في العالم تورّطها في هذه الأحداث الخُلقية.

في القسم الأخير من الكتاب يستعيد جان فرانكو سفيدركوتسكي موقفَ اللاهوتي المنشقّ هانس كونغ، بشأن إصلاح الأوضاع الجنسية في الكنيسة. فقد لخّص كونغ أزمة الكنيسة البنيوية في الارتهان إلى بارَديغم القرون الوسطى في تعاملها مع مجتمعات حداثية ومعلمَنة. بما أفرز تناقضات تعدَّتْ حيز الكنيسة إلى مجال المجتمعات المسيحيّة، ناهيك عن تشظّي تلك التناقضات مع أديان وحضارات أخرى في ضروب شتى من التصادم. فقد جعلت الدغمائيةُ المستحكمةُ باللاهوت المسيحيّ مطالبَ التجديد عصيّةً، ولعلّ أوكدها المسألة المتعلّقة بالأحوال الشخصية، سواء ما اتّصل منها برجل الدين والراهبة، أو ببنية الأسرة الكاثوليكية عامّة. إذ لا تزال الكنيسة تصرّ على «قانون كَنَسيّ» (diritto canonico) عتيق ينصّ على العزوبة القسرية في أوساط الإكليروس، وهو ما جرَّ إلى انحرافات خُلقية، أبرزها في الوقت الراهن أحداث الاعتداءات الجنسية على القاصرين في عدّة دول. ما أجبر كاتدرائيات أمريكية إلى إعلان إفلاسها، تفاديا للتتبّعات القضائية المنهِكة. وأمّا المسألة الأخرى التي ما انفكّت ترهق الأُسَر الكاثوليكية فهي رفْض الكنيسة، حدّ الراهن، السماح للمطلّقين بإعادة بناء حياتهم الزوجية العادية. وكلّما طُرحَت مسألة ضمّ هؤلاء إلى الكنيسة مجدَّدًا، إلّا ولاقت معارضة من شقّ لاهوتيّ متشدّد، لعلّ آخرها توقيع لفيف يزيد عن ستين شخصا من رجال دين ومقرَّبين من الدوائر الكَنَسيّة على عريضة، تتّهم البابا الحالي فرنسيس بالهرطقة، جراّء ما أورده في الإرشاد الرسولي «فرح الحب» (Amoris laetitia)، وذلك لتلميحه إلى إمكانية احتضان جحافل المطلّقين في الكنيسة. -----

---

- الكتاب: الكنيسة الغربية والمسألة الأخلاقية
- تأليف: جان فرانكو سفيدركوتسكي.
- الناشر: روبتينو (كاتنزارو-إيطاليا) 'باللغة الإيطالية'.
- سنة النشر: 2019.
- عدد الصفحات: 96 ص.

* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا

أمراض السعادة
هوغ لاغرانج

سعيد بوكرامي *

من بين الطرق العديدة التي تجعل البشر عُرضة للأمراض المزمنة والدائمة، والتي أصبحت، للأسف، لا تعد ولا تحصى، هناك الأوبئة العديدة التي ظهرت مع تاريخ البشرية، ومعلوم أن لكل عصر حصته من الأمراض، كذلك عصرنا اجتمعت فيه الأوبئة بالأمراض، فإذا كانت الأولى تظهر وتختفي، فإن بعض الأمراض صارت مستدامة وهي بلا شك وليدة ظروف العيش والتغيرات البيئية والاجتماعية والاقتصادية. من بين هذه الأمراض المنتشرة في عصرنا، نجد «أمراض السعادة» وقد يبدو التوصيف غريبا لكن عالم الاجتماع والباحث في المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي هوغ لاغرانج يؤكد أن اللحظة الحالية مثالية لتحليل هذه الأمراض والتحذير منها باعتبارها أحد أكثر التحولات الحاسمة والخطيرة للحالة الإنسانية في التاريخ الحديث.

وبهذا الصدد، يقول لاغرانج: «من الآن فصاعدًا أصبح المصير المشترك مصنوعا من أمراض فردية - كالسرطانات، وأمراض القلب والأوعية الدموية، والسكري، والأمراض العقلية والسلوكية بشكل كبير وقد أفسحت المجال لحتمية جماعية لا مناص منها وهي أن هذه الأمراض بأنواعها ومخاطرها لابد وأن تخضع للملاحظة والتحليل الإنثربولوجي، من أجل تسليط الضوء على الاضطرابات العقلية والسلوكية. ولتحقيق ذلك نحتاج إلى حشد مقاربات علمية تتعلق بالتاريخ الطبي والاجتماعي، وعلم الأحياء، وعلم الوراثة، وعلم الأعصاب، والطب النفسي، وعلم الاجتماع...).

انشغلت البشرية منذ عصور بالسعي الحثيث وراء السعادة تحت راية الحرية والازدهار والعدالة، وكان الغربيون يعتزمون العيش بشكل مستقل في ظل قانون عام، وكانت الحداثة تقدم نفسها على أنها أفق يمكن للأفراد أن يكونوا فيه أحرارًا ومتساوين في الحقوق. وكل يكافأ حسب كفاءته. على الرغم من الزيادة الهائلة في متوسط العمر المتوقع والانخفاض الحاد في العنف والفقر، ما زال يتعين على المجتمع الحديث تحقيق الرفاهية المستدامة. يشهد على ذلك تطور المعاناة النفسية والاضطرابات السلوكية خلال نصف القرن الماضي. انفجار الإدمان، والقلق والاكتئاب، والاستهلاك الهائل للعقاقير المؤثرة على الأعصاب: يحلل هوغ لاغرانج أمراض الحداثة، التي هي ثمار التوترات الملحة للفرد في مجتمع حيث الاستقلال الذاتي مصحوب بالوحدة والمعاناة، والجدارة تتحطم بعدم المساواة في المهارات المعرفية. يضع الكاتب العلاقة بين الإنسان والأنواع الأخرى والبيئة في صلب تفكيره، مصرا على ضرورة مواجهة الأنثروبولوجيا بالبيولوجيا وعلم الوراثة، من أجل محاربة هذه العلل وإعادة التفكير في الحداثة وفق منظور يحتمل تحقيق مجتمع لائق.

وفي هذا الكتاب -المؤلف من ٤٨٠ صفحة، والمثير للإعجاب بوفرة وتنوع المراجع التي اعتمدت في الدراسة- يقوم عالم الاجتماع هوغ لاغرانج بتأمل شامل، فلسفيًا واجتماعيًا، حول ما يسميه بأمراض السعادة. الموضوع ليس جديدًا تمامًا: نذكر بشكل خاص كتاب (سلطة السعادة) لإدغار كاباناس وإيفا إلوز، والذي ركزا فيه على «تجار السعادة» الذين يسعون لإقناعنا بأن سعادتنا تعتمد علينا. لكن نهج لاغرانج هو عكس ذلك تقريبًا، حيث يؤكد هنا على أن هناك ما هو خارج عن إرادتنا، ويتمثل في إرثنا الجيني. إذن ما هي أمراض السعادة؟ تظهر في محاولة زيادة متوسط العمر المتوقع وبشتى الوسائل -الذي تضاعف تقريبًا بين عامي ١٨٥٠ و١٩٧٠- وكذلك في التغيرات العميقة التي حدثت في أسباب الوفيات. لقد أفسحت الأمراض المعدية أو الوبائية التي تؤثر على المجتمع بأسره المجال لمزيد من الأمراض الفردية التي تعتمد على الاضطرابات العالمية مثل الحروب والكوارث الطبيعية، أو على الأمراض العقلية التي توصف بأنها اضطرابات القلق والاكتئاب، أو على أنماط حياتنا مثل إدمان الكحول والإفراط في السمنة. ولقد تزامن انفجار أمراض السعادة في الدول الغربية مع مرحلة النمو الكبير والتحرر القوي.

لتفسير هذا الانفجار، يستحضر المؤلف ما يسميه بـ«دوار الحرية» على غرار ما فعله آلان إيرينبرغ في كتابه «التعب من الذات». إن فقدان تأثير الطهرية، خاصة في الولايات المتحدة، والوزن المتزايد لمعايير الإنجاز والمسؤولية الشخصية، المصحوب بتراجع المؤسسات التي تؤطر الأخلاق، كان من شأنه أن يفتح أفقًا من الاحتمالات المقلقة. يشير المؤلف إلى أنه في غرب وشمال أوروبا، حيث تكون الحرية الأخلاقية والاستقلالية الفردية أكثر وضوحًا، فإن متلازمة القلق والاكتئاب قد تطورت أكثر من غيرها. على العكس ومن ذلك، يوجد احتواء لهذا التطور بشكل أكبر في بلدان جنوب أوروبا، على سبيل المثال، حيث لا تزال الروابط الأسرية تقاوم التفكك. كما لعب التناقض المتزايد بين هذا التطور للحرية الشخصية وتطور العمل دورًا أيضًا، حيث تلاشت الثقافة المهنية في العديد من المهن وتم القضاء على تعبئة الاستقلالية أو الإبداعية التي تلاشت بين حشود الآخرين في بيئة العمل؛ حيث تشتد المنافسة بين الأشخاص المؤهلين بشكل متزايد، وتنتشر البطالة مع حصتها من العار والشعور بالذنب الشخصي، وكأن الجميع يستحقون مصيرهم. وهكذا يصر لاغرانج على تفسير هذه المعاناة التي تُستَقطر بواسطة أيديولوجية الجدارة، لأنه إذا كانت الجدارة وحدها تحكم النجاح الأكاديمي والمهني، فإننا جميعًا نستحق مصيرنا. ولكن على الرغم من تأكيد المؤلف على الطابع الضار لمسألة الجدارة، والتي تقودنا إلى الشعور المتواصل بالمسؤولية عما يحدث لنا في كل مكان، فلا شيء يقال عن الحقيقة التي يؤكدها علماء النفس وهي إن عدم الاعتقاد على الإطلاق بأن جهودك ستكافأ هو أمر محبط يفضي إلى أزمات نفسية ومشاكل مهنية.

بعد ذلك ينطلق لاغرانج في اتجاه يتجنبه الباحثون في العلوم الإنسانية، إذ ينتقل إلى أبحاث علماء الوراثة وتحليلاتهم عن توريث الذكاء، وعلى ضوئها يتساءل المؤلف صراحةً عن دور الذكاء الموروث بيولوجيًا، والذي لا يتحمل الناس مسؤوليته، وبذلك ينحرف

منطق الجدارة. يركز هؤلاء الباحثون وهم بشكل ساحق من الأنغلوساكسونيين على هذا المقياس العملي جدا ألا وهو معدل الذكاء، وهو اختبار طُوّر للتنبؤ إحصائيًا بالنجاح الأكاديمي، واعتبر الوسيلة الرئيسية بالنسبة لعلماء الأحياء لتقييم ما ينتقل بيولوجيًا، فهذه ليست مشكلة بالنسبة لهم. كما أن استنتاجاتهم، على مدى خمسين عامًا، هي أن المهارات التي تتجلى على هذا النحو هي نتيجة لا تنفصل عن البيولوجيا والبيئة. ومع ذلك، فإن منظورهم التخصصي يدفعهم - على عكس علماء الاجتماع - إلى التفكير مسبقًا في أن البيئة ليست مهمة جدًا. وبالتالي، فإن هذه اللامبالاة النسبية بالبيئة تعني أنهم غالبًا ما يتجاهلون تحديد الفئة المدروسة، في حين أن الوراثة تختلف وفقًا لمستوى عدم المساواة في ظروف المعيشة داخل المجتمع: كلما زادت الظروف المعيشية تشابها، زاد عبؤها الفطري.

وعلى الرغم من تراكم المراجع العلمية، فإنه يمكن للمرء أن يشك، كما هي الحال مع العلوم جميعها، ما دامت المناقشات مفتوحة ومبنية على خلافات كبيرة. لذلك يُخشى أن تكون الرسالة المشفرة والمذهلة التي سيحتفظ بها القراء، من الكتاب مفادها أن وراثة الذكاء تصل إلى ٥٠٪ في الطفولة و٧٠٪ في مرحلة المراهقة. بدون أننا نعرف أي فئة سكانية مقصودة، وعلى أساس أي اختبار، وأي نوع من البيئة. خصوصا وأن المؤلف، يصر على الأرقام بدلاً من حدودها، فمن المحتمل جدًا أن ننسى أنه إذا كان من الممكن تقييم وراثة الذكاء دون تحيز كبير على مستوى السكان، فإن هذا المعدل لن تكون له أية قيمة على مستوى الأفراد المعزولين. لهذا لا يمكن تعميم هذه النسب على باقي سكان العالم.

يعترف الكتاب بالصعوبة الكامنة في المناهج متعددة التخصصات: أمام علوم آسرة بداهة ولكنها معقدة، مثل علم الوراثة أو علم الأعصاب؛ إذ يصعب على غير المتخصصين تقييم المناقشات الجارية التي تدور حولهما. إذا اختار لاغرانج الاعتماد قبل كل شيء على منجزات عالم الوراثة -روبير بلومان، فإنه يهمل منجزات مذهلة لكل أولئك الذين يعتقدون أن هذا الهوس بتقسيم الذكاء - الفطري مقابل المكتسب - لم يعد موجودًا، ولا معنى له ويرجع هذا أساسًا إلى سببين: أولاً، لأن الدماغ نفسه يتميز منذ البداية ببيئته الخاصة؛ ثانيًا، لأن علم التغيرات الجينية يؤكد أن البيئة يمكن أن تحدث تغييرات في التعبير الجيني دون طفرات الحمض النووي. لذلك، تؤثر البيئة على

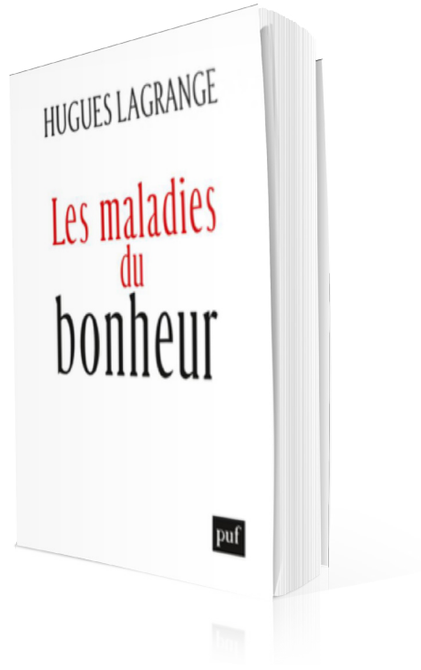

العوامل البيولوجية التي تبدو فطرية. ومع ذلك، فإن ما يشكل جزءًا مهمًا من أطروحة لاغرانج يظل غامضًا نسبيًا، لأن المؤلف يدرك في النهاية أن الفطري والمكتسب غير قابلين للفصل.

وفي نهاية المطاف، فإن أطروحاته الاجتماعية أو الاجتماعية السياسية هي التي أثبتت أنها أكثر الأطروحات طموحا لمعالجة أمراض السعادة. في الجزء الأخير من العمل، يذكرنا لاغرانج بتجليات هاتين الأطروحتين وهي: إعطاء وزن أقل للأداء الفكري، وهيمنة المدرسة، والتنديد بالاختبارات الجائرة التي هي أساس المنافسة الاجتماعية على المكانة، وبالتالي الدعوة إلى ترسيم حدود مجالات العدالة وتكافؤ الفرص. كما يشدد على ضرورة الحد من التنافس على المظهر، الذي يقوض طموح الناس، وخاصة الشباب. يطالب الكاتب بتعزيز بعض التصرفات أو الصفات مثل الاهتمام والاحترام والمودة -حتى لو سعى المؤلف مرة أخرى إلى ذكر المحددات الوراثية دون إدراك واضح منه لما سيجلبه هذا من مميزات للعيش والهناء. وهنا يعطي المؤلف اهتماما بالغا لهذه المحددات الوراثية بحيث يذكرنا(أن جميع سلوكياتنا تتضمن جزءًا - يصعب تقييمه إن لم يكن مستحيلًا - يعود إلى التصميم الوراثي، يحتاج الإنسان إلى شيء واحد هو الإصرار للوصول إلى غاياته ومهما اختلفت قدراته العقلية، وقد ثبتت كما يقول لاغرانج حقيقة أن الأفراد غير متساوين وأن إخبارهم بأنهم متساوون لا يمكن إلا أن يدفع إلى تحطيم الأقل مهارة وأداء، وإقصائهم من مضمار المنافسة. الحقيقة الجلية أن البشر غير متساوين فيزيولوجيا، لكن المعضلة الأخرى أن المجتمع مضطر لإعلان مبدأ المساواة لتأسيس مجتمع ديمقراطي على الرغم من أن الجميع يعلم أنهم غير متساوين. بالطبع يجب الإشارة إلى ما يسمونه بالتمييز الإيجابي الموجه إلى الفئات الأكثر حرمانًا! لكن كيف سنحدد هذه الفئة إذا ظللنا مركزين على عدم المساواة في الذكاء فقط؟ وهل سيشعرون بتحسن إذا أوضحنا لهم أن إعاقتهم النسبية متجذرة في جيناتهم؟ مع العلم أن نماذج كثيرة من العظماء والعباقرة كانوا يعانون من اختلالات وإعاقات ورغم ذلك أبانوا عن إدراك وتنافسية وعطاء يدويّ وصناعي وفكري وعلمي وأدبي يضرب عرض الحائط نظريات الذكاء البشري.

يبدو طموح الكاتب كبيرا، ولا يسع المرء إلا أن يعجب بهذا الزخم المعرفي المتجدد، حتى وإن لم يقتنع بكل نتائجه. ومن الواضح جدا أن لاغرانج يقدم عملاً يستحوذ على انتباه القارئ، عمل آسر ومشحون وموثق توثيقا جيدا، ولعل أشد ما يثير الإعجاب في الكتاب موسوعيته، ولكنها تثير تساؤلات كثيرة للسبب نفسه بلا شك. ومع ذلك، فإن ملاحظاته الختامية حول الحاجة الملحة للتفكير فيما يجب أن يضمن للبشر وبمختلف أنواعهم وأعراقهم ومعتقداتهم وبيئتهم حياة كريمة خالية من التمييز الفيزيولوجي والإيديلوجي الذي أبان عن فشله منذ الحضارات التي سعت إلى ضمان تفوق العرق الخالص والتفوق الجسدي والعقلي، ولكنها انهارت في النهاية إلى الاضمحلال والفناء. بيد أن الحقيقة التي لا جدال حولها أن الإنسان مسافر على هذا الكوكب من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة ومن سياقات إنثروبولوجية إلى أخرى حاملا معه إرثه الجيني، الذي لا يميزه عن غيره إلا بقدر عمله ومجهوده وانخراطه في الانجاز والعطاء الايجابيين لصالحه كفرد ولفائدة المجتمعات الإنسانية برمتها.

- الكتاب: «أمراض السعادة».
- المؤلف: هوغ لاغرانج.
- الناشر: بيف، فرنسا، 2020.
- عدد الصفحات: 480 صفحات.

* كاتب ومترجم مغربي

مكة.. سيرة مدينة غامضة
ماريا كيتشا

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

لا يختلف اثنان على تحديد الدراسات الشرقية التي تُنشر في الدول الأوروبية، ومنها روسيا، وتقسيمها إلى تيارين واسعين: الأول علمي جاد، يمكن وضعه في خانة الأساسيات؛ حيث لا يستقيم بدونه هذا الفرع من العلم الذي يشتغل فيه علماءٌ بارزون يعملون في الأكاديميات والمعاهد، مما يعني وجود لغة علمية في البحوث والدراسات التي يؤلفونها، مقترنة بنقد وتحليل عميقين.

في هذا السياق، وبما يخص الجزء المتعلق بمنتوج الدراسات الشرقية الصادرة باللغة الروسية نستشهد بأعمال من قبيل: تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام وأوائل العصور الوسطى للعرب بقلم المستعرب السوفيتي الشهير إسحق فلتنشسكي، أو كتاب تاريخ الخلافة الذي وضعه المستشرق أوليغ بولشاكوف، ومن ضمن الأعمال الرصينة التي صدرت مؤخرا: كتاب «سلطنة عمان.. أساطير وحقائق تاريخية» لإيغور سينتشينكو.

وقد جرت العادة أن يتسابق المختصون والدارسون لعلم الاستشراق، في المقام الأول، على اقتناء مثل هذه الكتب. وهناك القسم الثاني للدراست المهتمة بالشرق، يتناول المشتغلون فيها موضوعات علمية أو تاريخية، لكنهم يعرضونها بأسلوب شعبي مبسط، وتلاقي مثل هذه المنشورات التي تخرج عن النمط الصارم للدراسات الاستشراقية، رواجا واسعا لدى القرّاء غير المختصين، الباحثين عن المعلومة وما يتمخض عنها من كشف للحياة الشرقية، والتعريف بها بصورة مباشرة ممتعة، ولكن دون الوقوع في مطب الإثارة المجانية والتسلية السطحية.

صدر الكتاب الذي بين أيدينا عن دار «إكسيمو» أكبر دار نشر روسية؛ وذلك ضمن سلسلة حملت اسم «بومبيرا» تُعنى بالإصدارات الشعبية للمواضيع التاريخية بشتى أشكالها. وقد أبدت هذه الدار مؤخرا عناية بالأدب العربي، وبه تكون المؤسسة الروسية التجارية الوحيدة التي تدير الدفة من جديد ناحية الأدب العربي، ترجمةً وإصدارا، بعد أن تعطل دورانها ثلاثين عاما، أي منذ سقوط الاتحاد السوفيتي، فكان آخر إصداراتها ترجمة رواية «سيدات القمر» للكاتبة العمانية جوخة الحارثي.

مؤلفة كتاب «مكة... سيرة مدينة غامضة» ماريا كيتشا رحّالة روسية ومؤلفة في الحقل الاستشراقي تتمتع بمعرفة عميقة وسعة اطلاع في مجالها؛ مما حدا بدار «إكسيمو» لوضع خطة معها في نشر مؤلفات عن كبريات المدن الشرقية. تعملُ كيتشا بأسلوب مستحدث يتصف بالمرونة، والبحث عن أجوبة لما يعتمل في الساحة الراهنة من خلال النبش في تاريخ المدن والشعوب، ففي كتابها عن مكة انطلقت من فكرة ظريفة تحدثت من خلالها عن قلب العالم العربي، ومركز التاريخ الإسلامي، والوضع السياسي الحديث في شبه الجزيرة من منظور تاريخ المدينة وساكنتها ككل.

ويحتوي الكتاب على الكثير من التفاصيل اليومية البديعة ترتبط بحياة المكيين، وروتينهم اليومي، والهويات التي تشكل نسيجهم الاجتماعي، والأنشطة التي يزاولونها، وهامش تساليهم، ومطبخهم، ومعمارهم، ومصادر دخلهم، وحروبهم السياسة، ومراحل البناء والتوسع في مدينتهم، ومشكلة تزويدها بالمياه، وعلاقة سكانها بعضهم ببعض وبالبيئة المحيطة بهم. تفاصيل كثيرة لا تتاح حتى للحجاج الذين قصدوا مكة. فالكتاب يأخذنا في رحلة عبر القرون دون أن نخرج من الديار المقدسة: مُناوشات القبائل البدوية، وتناوب الحُكّام، وعهد الخلافة العربية، وسلطنة المماليك، وفترة النفوذ العثماني وأخيراً محاولات التغريب.

لقد حاول العديد من الرحّالة مشاركة القارئ انطباعاتهم وإغراقه في أجواء الشرق، ولكن لم يُقيّض للكثيرين منهم إشباع أوصافهم بالمعاني التي تأسر مشاعر القارئ وتضيء ذهنه في ذات الوقت. في كتاب «مكة... سيرة مدينة غامضة» نلاحظ التوازن الدقيق بين الامتلاء الفكري والثراء العاطفي. يرفع الكتاب حجبَ السرية التي تغلف المدينة الغامضة للقارئ الروسي، ويقدم له معلومات تثري أفكاره وتثير شعوره بالمشاركة في الأحداث الواردة. كما أفادت المؤلفة من أسلوبها الحكائي حيث تروي فصول كتابها مثلما يسرد الروائي قصته الخيالية التي يرصد لها أبطالا وينسج حبكة تشدُّ القارئ إلى إسارها وتثير عواطفه الخفية؛ ناهيك عن لغة الكاتبة التي تميزت بالفصاحة والبلاغة الأدبية. لهذا ظهرت عنواين الفصول وكأننا حيال رواية شرقية تاريخية غنية بالألوان: وادي البكاء، مدينة الله والرسول، الطريق إلى الجنة، قسوة الصالحين، المرآة الإلهية، الليل والنهار، قرن الشيطان، ألف جملٍ ميّتٍ، أوروبيون بالعباءات العربية، دم وخرسانة، مدينة فاضلة وبديعة.

تُعلّق المؤلفة على سيرة المدينة باعتبارها محورا لتاريخ شخصيات بارزة عاشت فيها أو تركت أثرا في تاريخها، بدءا بنبي الإسلام الذي خصصت له الكاتبة جزءا من الكتاب غير يسير؛ وهناك شخصية ابن عربي الذي وصل مكة عام ١٢٠٢ كحاج ومكث فيها. وتثبت المؤلفة أن اختيار قطبُ الصوفية مكةَ كدارٍ لإقامته الطويلة لم يأت مصادفة، فمن وحي هذه المدينة جاءه الإلهام لتأليف كتابه المحوري الكبير «فتوحات مكية». ويتضمن الكتاب شخصية القائد الفرنسي، وأحد المشاركين في الحروب الصليبية، رينو دي شاتيلون، واصفا إياه وصفا دقيقا، ومعرجا على حملته عام ١١٨١ التي استولى من خلالها على مدينة إيلات الساحلية في خليج العقبة، وخروجه بخطة لغزو مكة والمدينة، وما تلى ذلك من أحداث أفضت إلى وقوع هذا القائد في قبضة صلاح الدين الذي لم يشفع كرمه المعروف لشاتيلون فبتر رأسه بيده.

وتشمل قائمة الشخصيات رهطا من الأوروبيين الذين كانوا من بين أول من زار مكة، من بينهم الرائد والرحالة الإيطالي لودوفيكو دي فارتيما (المتوفى سنة ١٥١٧) الذي تظاهر بالإسلام من أجل اختراق مكة. وهناك أيضا من كانوا يحلمون بالشرق

واعتنقوا الإسلام مخلصين وبلغوا حلمهم بزيارة المدينة المقدسة كالسويسري يوهان لودفيغ بورغارد (١٧٨٤-١٨١٧) الذي تسمى فيما بعد بإبراهيم بن عبد الله.

وتطرقت الباحثة الروسية أيضا إلى أحداث استثنائية واجهتها مكة كالسنوات التي توقفت قوافل الحجاج عن الوصول إليها لأسباب متعددة، وسنوات تمرد المكيّين، وحالات إعادة البناء التي خضعت لها المدينة.

ثمَّة قيمة إضافية انفرد بها هذا الكتاب وهي احتواؤه مادة تترجم إلى اللغة الروسية للمرة الأولى بما فيها ملاحظات المسافرين والعلماء والفلاسفة، الشرقيين والغربيين على حد سواء، عن مدينة مكة ومكانتها الإسلامية، لذلك ينتفي الوصف بأحادية النظر والتحيز الذي يهدد أحيانا هذا النوع من الدراسات ويضعف موضوعيته العلمية.

وغالبا ما ينحو الدارسون الروس للأدبيات الشرقية إلى الركون إلى الجانب التاريخي لموضوعهم ومحضه جل اهتمامهم، فيما يختصرون الجانب المرتبط بالوضع الراهن حتى وإن كان جديرا بالدراسة والتدقيق، يحدوهم إلى ذلك توسيع دائرة القرّاء الذين عادة ما يلجون عالم الشرق من أجل التعرف بقديمه خاصة. ولم يختلف كتاب كيتشا عن هذا المنحى إذ خصصت جزءا يسيرا من دراستها (٤٥ صفحة) للتاريخ الحديث للمملكة العربية السعودية ابتداءًا من عام ١٩٣٢ حين تغير اسم نجد والحجاز إلى الاسم الحالي للبلد. وفي هذا السياق ركزت المؤلفة على مسائل محدودة وجدتها هامة لموضوعها الأساسي ومنها قضية فقدان المدن الشرقية طابعها التاريخي. تقول في هذا السياق: «لقد تغيرت مدينة الله بين عشية وضحاها (...) ظهرت في مكة ناطحات سحاب زجاجية وتقاطعات للنقل العام. هدمت المباني القديمة (...) وتم رفع جميع القيود المفروضة على التخطيط العمراني (...) قطعت الأشجار ولم يقترح مصممو المناظر الطبيعية حلولا بديلة (...) وحده الجمال الأبدي للحرم ظلّ يُذكّر بالمدينة المقدسة» (ص: ٣١٠).

وفي هذا السياق أيضا، تناولت المؤلفة أنشطة مركز أبحاث الحج التابع لجامعة الملك عبدالعزيز بالتفصيل، حيث انتقد نشطاؤه، بعد أن صوروا ووثقوا مدينة مكة بأكملها تقريبًا، انتقدوا المخطط العام لإعادة بناء المدينة، مثبتين أن تنفيذه سيقضي على تفرد المكان.

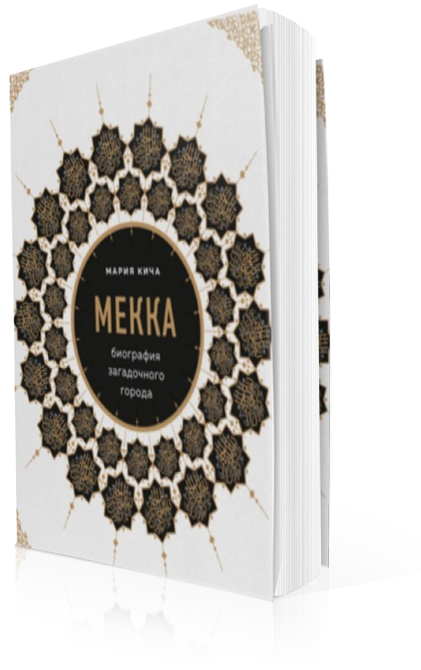

ولأجل اجتذاب القراء الروس حاولت المؤلفة المقاربة بين السعودية وروسيا. فلأسباب جغرافية وتاريخية، لم تكن هناك اتصالات بين روسيا والرياض لفترة طويلة أو أنها ظلت محدودة، مع ذلك فقد نسجت الباحثة الكثير من الحقائق التاريخية التي تقاطعت فيها مصائر البلدين. نجد مثلا أن حرب القرم التي دارت بين العثمانيين والإمبراطورية الروسية بين أعوام ١٨٥٣-١٨٥٦ أضعفت بشكل كبير السيطرة العثمانية على الأراضي السعودية. ومثلما هو معروف فقد ثارت مكة على الحكم العثماني عام ١٨٥٤، فحثّ العلماءُ الناسَ على المقاومة، وراح السكانُ المحليون يعترضون العثمانيين، وأصبحت حركة الجنود العثمانيين في المدينة مقيدة وغير آمنة. عندئذٍ حاول الشريف عبد المطلب استعادة النظام دون جدوى، ثم عزم على اللجوء إلى إسطنبول ولكنه أدرك أن أحدا لن يساعده هنالك، فالناس في ذروة حرب القرم، ليقرر بعدها نشر جيشه في الشارع، والنتيجة أن العثمانيين اعتقدوا أن عبد المطلب يعدُ العدة لقتالهم، فقاموا بعزله، ولم يعيروا أعذاره التي ساقها لهم أذنا صاغية. وتكتب المؤلفة عن وجود بعض مواطني روسيا المسلمين في المدينة المقدسة فتقول: «قبل ثورة ١٩١٧ وضع التتار الأثرياء أياديهم على بعض الأراضي في مكة والمدينة جوار المسجد الحرام والمسجد النبوي وتم بناء الفنادق والمدارس على هذه الأراضي. تم تسجيل العقارات على أنها ممتلكات وقف غير قابلة للتصرف ومخصصة للأغراض الدينية. وأثناء توسعة المسجد الحرام تم هدم هذه الأبنية، وأُدرجت الأراضي ضمن مساحة المسجد. اليوم بقي للتتار موقع في المدينة المنورة يحمل اسمهم. إن عدد التتار في كلتا المدينتين المقدستين قليل ويعد بمئات الأشخاص، وقد فقدوا لغتهم الأم منذ فترة طويلة ولكنهم على اتصال دائم بأقاربهم من مواطني تترستان» (ص: ٢٣١).

ويجدر الذكر بأن بضعة مئات من الشيشان والإنجوش وغيرهم من شعوب القوقاز الذين هاجروا إلى الشرق الأوسط خلال حرب القوقاز ١٨١٧-١٨٦٤ ما زالوا يعيشون في المملكة العربية السعودية.

استثمرت المؤلفة كل سانحة لإظهار الروابط الميتافيزيقية بين روسيا والمملكة العربية السعودية، فتتخللت قصصها عن تاريخ مكة، روائع من الأدب الروسي التي تذكر فيها هذه المدينة. هناك على سبيل المثال قصيدة «الحاج» للشاعر والمستشرق الروسي نيكولاي جوميلوف (١٨٨٦-١٩٢١)، زوج الشاعرة الروسية الشهيرة آنا أخماتوفا. ولعل صيت هذا الشاعر في العالم غير مدوٍّ كزوجته، ولكن موهبة الشعرية مشعة هي الأخرى. ومع أشطر قصيدته نختتم الحديث عن كتاب مهم للقارئ الروسي... كتابٌ عن مكة التي «غيّرت مظهرها جذريًا لكنها لم تتغير في جوهرها ذرة واحدة، وتظلُ هي نفسها اليوم: مهيبة ومرغوبة» (ص: ٨).

أحمد أوغلو يحمل عصاه/ ويغادر المدينة المزدحمة/ ها هو يسير على الرمال الفضفاضة/ يمشي الهوينى ويرفع قدميه بمشقة/ أحمد، يا أحمد! أنت أيها الرجل العجوز/ لا ينفعنك الخروج في رحلة مجهولة غريبة/ سيأخذ الأعداء زادك كله، وستخدعك زوجتك الحمقاء/ - لقد دعاني الله هذه الليلة/ هُتافٌ قال لي: - قم يا أحمد أوغلو، انس كل شيء، وانطلق دون خوف، وسبح باسمي/ اذهب إلى حيث الزوبعة الحمراء تتطاير جبالا من غبار/ حيث تطير النسور المتوجة/ وحيث يضحك حصانٌ على جثة بدوي/ إلى هناك يا أحمد: إلى مكة والمدينة المنورة».

- الكتاب: "مكة.. سيرة مدينة غامضة".
- المؤلف: ماريا كيتشا.
- الناشر: إكسيمو - بومبيرا/ موسكو/ 2020.
- عدد الصفحات: 368 صفحة.

*أكاديمية ومستعربة روسية

رأس المال والأيديولوجيا
توماس بيكيتي

علي الرواحي *

يعُود مؤلف كتاب رأس المال في القرن الحادي والعشرين إلى الواجهة من جديد، والذي يعتبر من أهم الأعمال الاقتصادية وأكثرها مبيعا وتأثيرا في السنوات الأخيرة الماضية؛ وذلك بعد صدور هذا العمل الجديد الذي يناقش فيه التاريخ العالمي للامساواة، مُتتبعا في ذلك وبكل جرأة الأفكار التي حافظت على عدم المساواة في الألفية الماضية، ساعيا للكشف عن السياسات السطحية للأحزاب اليمينية واليسارية على مستوى العالم، محددا هيكلا اقتصادياً أكثر عدالة من قبل. غير أن ما يميز هذا العمل عن السابق، ويمنحه دفعة معرفية جديدة، هو أنه أقل التصاقا بالمركزية الأوروبية، كما يركز إلى حد كبير على السياسة، والهشاشة، وانتشار أيديولوجيا اللامساواة بسرعة كبيرة.

ويعتبر هذا العمل بمثابة رد على الكثير من الانتقادات التي أثيرت على الكتاب السابق؛ وذلك من خلال ربط رأس المال بالأنظمة السياسية، والتي قدمت حماية مباشرة أو غير مباشرة، لتراكم رأس المال والتي تشمل المؤسسات الرسمية كالقوانين والتشريعات من جهة، والمؤسسات غير الرسمية مثل الأنظمة الأيديولوجية من الجهة الأخرى؛ حيث تُشكل هذه العناصر معاً ما يسميه بيكيتي «نظام اللامساواة» والتي تتمثل في مجموعة من الخطابات والتشريعات المؤسسية التي تهدف إلى تبرير وهيكلة عدم المساواة الشاملة: الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية في مجتمع ما.

ويُلاحظ الاقتصادي الفرنسي بأن الاقتصاد ليس واقعة طبيعية معطاة؛ ذلك أن الأسواق، والأرباح، ورأس المال، كلها تركيبات تاريخية تعتمد إلى حد كبير على الخيارات البشرية. فهو من خلال هذا العمل، يتقصى عن طريق تجميع كبير للبيانات المالية والاقتصادية المختلفة، التفاعلات المادية والايديولوجيا التي تعتنقها الجماعات البشرية، تلك التي أنتجت الكثير من الظواهر البشرية، مثل: العبودية، والاستعمار، وتراكم رأس المال، وهي التي شكلت حياة، ومستقبل الملايين من الأشخاص حول العالم.

ينقسم هذا العمل لأربعة أقسام، يتناول في القسم الأول والمعنون بالأنظمة الحاكمة واللامساواة في التاريخ، حيث يتناول السلطة والملكية في المجتمعات الأوروبية، كما يتناول لاحقا اختراع الملكية في المجتمعات، في حين يُعرج لاحقا على المجتمع الفرنسي متخذا حالة هذا المجتمع كحالة مستقلة، ثم يتناول المسارات الأوربية المتعددة. كما يناقش في القسم الثاني بعنوان العبودية والمجتمعات الكولونيالية، على مدى أربعة فصول، ١) مجتمعات العبودية وتطرف اللامساواة، ٢) المجتمعات الكولونيالة: التنوع والسيطرة، ٣) المجتمعات الثلاثية Ternary والكولونيالية: حالة الهند نموذجا، ٤) والمجتمعات الثلاثية والكولونيالية: مسارات الدول الأوراسية. في حين أن القسم الثالث يناقش التحول الكبير في القرن العشرين، وذلك من خلال التطرق لأزمة المُلكية في بعض المجتمعات، كما يتناول المساواة غير المكتملة في المجتمعات الديمقراطية الاجتماعية، متطرقا للمجتمعات الشيوعية وما بعدها. وفي ختام هذا الفصل، يتناول الرأسمالية المُفرطة بين الحداثة والقدامة. وفي الفصل الرابع والأخير، يعيد التفكير في أبعاد الصراعات السياسية من جوانب مختلفة، كالحدود السياسية، والمُلكية، وتأسيس مفهوم المساواة، والإبراهيمية اليسارية وظهور انشقاقات أوروبية، متطرقا أيضا إلى معاداة المهاجرين والوقوع في فخ الهوية في فترة ما بعد الاستعمار، مختتما هذا العمل بالحديث عن عناصر الاشتراكية الاجتماعية للقرن الحادي والعشرين.

من الضروري التوضيح في هذه المرحلة الأولية من العمل، مفهوم المجتمعات الثلاثية كما يشرحه المؤلف، حيث يقصد: الأنظمة الملكية، والاشتراكية الديمقراطية، والملكية الجديدة، والتي تحتوي جميعها على تناقضات مختلفة تقودها لأزمات وتحديات مختلفة حسب كل نظام.

ينطلق هذا العمل في المقدمة، من أن المجتمعات البشرية تسعى لتسويغ اللامساواة، بالرغم من عدم وجود الأسباب الكافية، حيث إن عدم وجود هذه الأسباب من الممكن أن يؤدي لانهيار المجتمعات ودخولها في حالة من الفوضى، وخطر الانهيار. لذلك؛ نجد أن في كل حقبة زمنية معينة، تتطور الخطابات المختلفة، والأيديولوجيات المتناقضة، بغرض إضفاء المشروعية أو الشرعية على اللامساواة الموجودة بالفعل، والتي يعتقد بها الناس؛ حيث تنبثق هذه الخطابات من قواعد اقتصادية، واجتماعية، وسياسية مختلفة، يستخدمها الأفراد لفهم البنية المجتمعية المحيطة بهم.

ففي مجتمعات اليوم، تشتمل هذه السرديات التبريرية أو التسويغية على موضوعات الملكية، وريادة الأعمال، والجدارة: يقال إن عدم المساواة الحديث يرجع فقط إلى أنه نتيجة لعملية يتم اختيارها بحرية؛ حيث يتمتع كل فرد بفرص متساوية للوصول إلى السوق والممتلكات والاستفادة منها تلقائيًا. فالثروة التي جمعها أغنى الأفراد،هم أيضًا الأكثر جرأة واستحقاقًا وفائدة. ومن ثم يقال إن اللامساواة الحديثة تتعارض تمامًا مع نوع عدم المساواة الموجود في المجتمعات ما قبل الحديثة، والذي كان قائمًا على اختلافات جامدة وتعسفية واستبدادية في كثير من الأحيان.

وتكمن المشكلة -حسب المؤلف- في أنَّ هذه الرواية القائمة على الملكية والجدارة، والتي ازدهرت لأول مرة في القرن التاسع عشر بعد انهيار الأنظمة القديمة ومجتمعاتها، والتي تغيرت جذريًا عن طريق الشعوب في نهاية القرن العشرين، وفي أعقاب سقوط الشيوعية السوفيتية وانتصار الرأسمالية المفرطة. تبدو هذه الرواية هشة جدا؛ حيث ظهرت مجموعة متنوعة من التناقضات اتخذت أشكالًا مختلفة جدًا في أوروبا والولايات المتحدة، والهند والبرازيل، والصين وجنوب إفريقيا، وفنزويلا والشرق الأوسط. ومع ذلك، فإنَّ اليوم، وبعد عقدين من القرن الحادي والعشرين، أصبحت المسارات المختلفة لهذه البلدان المتنوعة مترابطة بشكل متزايد، بغض النظر عن تاريخها الفردي المختلف، وذلك من خلال تبني منظور عبر وطني يمكننا أن نأمل في فهم نقاط الضعف في هذه الروايات والبدء في بناء بديل.

وفي الواقع، ازداد التفاوت الاجتماعي والاقتصادي في جميع مناطق العالم منذ الثمانينيات؛ ففي بعض الحالات، أصبح الأمر متطرفًا لدرجة أنه من الصعب تبريره من حيث المصلحة العامة. في كل مكان تقريبًا، هناك فجوة كبيرة تفصل الخطاب الرسمي حول الجدارة عن حقيقة الوصول إلى التعليم والثروة للطبقات الأقل حظًا في المجتمع. غالبًا ما يبدو أن خطاب الجدارة وريادة الأعمال يخدم في المقام الأول كوسيلة للأثرياء في اقتصاد اليوم لتبرير أي مستوى من عدم المساواة على الإطلاق، بينما يلوم الخاسرين بشكل قاطع على افتقارهم إلى الموهبة والفضيلة والاجتهاد. في أنظمة عدم المساواة السابقة، لم يلم الفقراء على فقرهم، أو على أي حال ليسوا بنفس الدرجة؛ حيث أكدت الروايات التبريرية السابقة بدلاً من ذلك على التكامل الوظيفي لمجموعات اجتماعية مختلفة.

يُظهر عدم المساواة الحديثة أيضًا مجموعة من الممارسات التمييزية القائمة على المكانة والعرق والدين، وهي ممارسات يتم اتباعها بعنف لا تعترف به الحكاية الخيالية للجدارة تمامًا. في هذه النواحي، يمكن أن يكون المجتمع الحديث وحشيًا مثل مجتمعات ما قبل الحداثة التي يحب أن يميز نفسه

عنها. لنأخذ على سبيل المثال التمييز الذي يواجهه المشردون والمهاجرون والملونون. لنفكر أيضًا في العديد من المهاجرين الذين غرقوا أثناء محاولتهم عبور البحر الأبيض المتوسط. بدون سردية عالمية ومساواة جديدة ذات مصداقية، من المحتمل جدًا أن تؤدي تحديات تزايد عدم المساواة، والهجرة، وتغير المناخ إلى التراجع في السياسات القومية الهوياتية القائمة على المخاوف من «الإحلال الكبير» لشعب من قبل شعب آخر؛ حيث ظهر هذا في أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين، ويبدو أنه يحدث مرة أخرى في أجزاء مختلفة من العالم في العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين.

ويناقش المؤلف، بعد مقدمة ممتعة، ومدهشة، مفهومه الخاص للأيديولوجيا، حيث يستخدم «الأيديولوجيا» بالمعنى الإيجابي والبناء للإشارة إلى مجموعة من الأفكار والخطابات المعقولة مسبقًا، تلك التي تصف كيف ينبغي بناء المجتمع. لذلك، فهي لها أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسية. إنها محاولة للرد على مجموعة واسعة من الأسئلة المتعلقة بالتنظيم المرغوب أو المثالي للمجتمع. وبالنظر إلى تعقيد القضايا، يجب أن يكون واضحًا أنه لا يمكن لأي أيديولوجية أن تحصل على الموافقة الكاملة والشاملة: فالصراع الأيديولوجي والخلاف متأصلان في مفهوم الأيديولوجيا ذاته. ومع ذلك، يجب على كل مجتمع محاولة الإجابة عن أسئلة حول كيفية تنظيمه، عادة على أساس تجربته التاريخية الخاصة ولكن أيضًا في بعض الأحيان على أساس تجارب المجتمعات الأخرى. حيث عادة ما يشعر الأفراد أيضًا بأنهم مدعوون لتكوين آراء خاصة بهم حول هذه القضايا الوجودية الأساسية، مهما كانت غامضة أو غير مرضية.

ومن الضروري التوضيح في هذا السياق، أن المؤلف يُدرك جيدًا أن كلمة «أيديولوجيا» يمكن استخدامها بشكل ازدرائي، أحيانًا لأسباب وجيهة. حيث إن كثيرا ما توصف الأفكار العقائدية المنفصلة عن الحقائق بأنها أيديولوجية. ومع ذلك، غالبًا ما يكون أولئك الذين يزعمون أنهم براغماتيون بشكل كامل هم في الواقع الأكثر «إيديولوجية» (بالمعنى الإزدرائي): حيث بالكاد يخفي ادعاؤهم بأنهم ما بعد أيديولوجيين ازدراءهم للأدلة والجهل التاريخي والتحيزات المشوهة والمصالح الطبقية. لذلك اعتمد هذا الكتاب بشدة على «الحقائق»، والأرقام المتوفرة بقدر الإمكان.

يرتكز رأس المال والأيديولوجيا على تاريخ مزدوج: تاريخ كمي للتفاوت في الدخل والممتلكات، وتاريخ الأنظمة الأيديولوجية التي سعت لشرعنة الكثير من الأفكار من خلال ظهور مجتمع الملكية. على سبيل المثال، بيكيتي، يعالج مشكلة الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية من خلال المناقشات السياسية حول الملكية الخاصة. بهذه الطريقة، يتحول تاريخ الرأسمالية إلى تاريخ الملكية؛ ذلك أن النظر إلى تاريخ الانتقال من المجتمعات الإقطاعية إلى الرأسمالية فقط من خلال منظور الملكية، يستطيع المرء من خلاله أن يفهم ظهور ظاهرتين مركزيتين للرأسمالية: تراكم رأس المال والنمو الاقتصادي. الأمر الذي يفسر إلى أي مدى أصبحت سلوكيات التراكم وتحسين

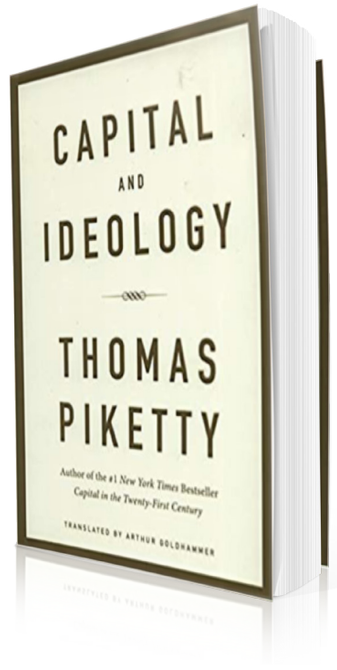

عمليات الإنتاج القوى الدافعة للنظام الاقتصادي منذ نشأة الملكية الحديثة، بعبارة أخرى، من الضروري فهم السبب، أو كما يشير بيكيتي، «في الواقع، رأس المال ليس هادئًا أبدًا»، فهو متحرك، ومتغير بشكل مستمر، وليس له نمط واحد.

في هذا الجانب، يعُوّل بيكيتي على أهمية العلوم الإنسانية والاجتماعية، لدراسة ومعرفة كيفية تطور الأيديولوجيات الاجتماعية التي تأتي استجابة للتجربة التاريخية. على سبيل المثال، نشأت الثورة الفرنسية جزئيًا من مظالم وإحباطات النظام السياسي القديم؛ حيث أحدثت الثورة بدورها تغييرات غيرت بشكل دائم التصورات عن نظام عدم المساواة السائد، كما حكمت مجموعات اجتماعية مختلفة على نجاح أو فشل التجارب الثورية من أشكال مختلفة من التنظيم السياسي وأنظمة الملكية والأنظمة الاجتماعية والمالية والتعليمية. ما تم تعلمه من هذه التجربة كان له تأثير حتمي على التحولات السياسية المستقبلية وغيرها من التجارب الأخرى. حيث يمكن النظر إلى المسار السياسي والأيديولوجي لكل أمة على أنه عملية واسعة من التعلم الجماعي والتجارب التاريخية. فالصراع متأصل في العملية لأن المجموعات الاجتماعية والسياسية المختلفة ليس لها مصالح وتطلعات مختلفة فحسب، بل تمتلك أيضًا ذكريات مختلفة. ومن ثم فهم يفسرون الأحداث الماضية بشكل مختلف ويستخلصون منها تداعيات مختلفة فيما يتعلق بالمستقبل. من تجارب التعلم هذه، يمكن أن يظهر إجماع وطني حول نقاط معينة، على الأقل لبعض الوقت.

وعلى الرغم من كون عملية التعلم منطقية جزئيا، إلا أن هذه العمليات لها حدودها؛ حيث تميل الدول إلى امتلاك ذكريات قصيرة (غالبًا ما ينسى الناس تجارب بلادهم بعد بضعة عقود أو يتذكرون فقط أجزاء متناثرة، ونادرًا ما يتم اختيارها عشوائيًا). والأسوأ من ذلك أن الذاكرة عادة ما تكون قومية بحتة. ربما يكون هذا أكثر مما يجب: يتعلم كل بلد حليف من تجارب البلدان الأخرى، سواء بشكل غير مباشر أو من خلال الاتصال المباشر (في شكل حرب أو استعمار أو احتلال أو معاهدة - أشكال التعلم التي قد لا تكون موضع ترحيب أو مفيدة). ومع ذلك، بالنسبة للجزء الأكبر، فإن الدول تشكل رؤيتها للنظام السياسي أو نظام الملكية المثالي أو النظام القانوني أو المالي أو التعليمي فقط من تجاربها الخاصة وتكون غير مدركة تمامًا لتجارب البلدان الأخرى، لا سيما عندما تكون بعيدة جغرافيًا أو يعتقد أنه ينتمي إلى حضارة مميزة أو تقليد ديني أو أخلاقي أو، مرة أخرى، عندما يكون الاتصال بالآخر عنيفًا (مما قد يعزز الشعور بالغربة). بشكل عام، غالبًا ما تستند خبرات التعلم الجماعي إلى مفاهيم غير دقيقة نسبيًا أو غير دقيقة للترتيبات المؤسسية الموجودة في مجتمعات أخرى (أو حتى داخل نفس البلد أو في البلدان المجاورة). هذا صحيح ليس فقط في المجال السياسي ولكن أيضًا فيما يتعلق بالمؤسسات القانونية والضريبية والتعليمية. لذلك؛ فإن فائدة الدروس المستمدة من خبرات التعلم الجماعي هذه محدودة إلى حد ما.

وفي ختام هذا العمل الكثيف، والمستند على بيانات ضخمة كبيرة، ومقارنات مختلفة، يطرح العديد من الأسئلة المحورية والمهمة، من قبيل: ما هو المجتمع العادل؟

فالمجتمع العادل حسب بيكيتي، والذي يعترف بنقص هذا التعريف، هو الذي يسمح لجميع أعضائه بالوصول إلى أوسع نطاق ممكن من السلع الأساسية، بما فيها التعليم، والصحة، والحق في التصويت، وبشكل أعم في المشاركة على أكمل وجه ممكن في مختلف أشكال الحياة الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والمدنية والسياسية. ينظم المجتمع العادل العلاقات الاجتماعية، والاقتصادية، وحقوق الملكية، وتوزيع الدخل والثروة بطريقة تسمح لأفراده الأقل حظًا بالتمتع بأعلى ظروف معيشية ممكنة. كما لا يتطلب المجتمع العادل بأي حال من الأحوال التوحيد أو المساواة المطلقة، إلى الحد الذي تكون فيه التفاوتات في الدخل والثروة نتيجة لتطلعات مختلفة وخيارات حياة متميزة أو تسمح بتحسين مستوى المعيشة وتوسيع الفرص المتاحة للمحرومين، يمكن اعتبارها عادلة. ولكن يجب إثبات ذلك وليس افتراضه، ولا يمكن التذرع بهذه الحجة لتبرير أي درجة من عدم المساواة على الإطلاق، كما هي الحال في كثير من الأحيان في الكثير من الأنظمة السياسية التقليدية.

- الكتاب: "رأس المال والأيديولوجيا".
- المؤلف: توماس بيكيتي.
- الناشر: Harvard University Press.2020.
- عدد الصفحات: جزأين، 1065 صفحة.

* كاتب عُماني

تحت السيد: الرجال والنساء والعرابون في مافيا الزراعة الإيطالية ... ماركو أوميتزولو

فاتنة نوفل *

إنه كتاب سياسي وقصة إنسانية أيضًا، يتحدث عن «هيكل سوق العمل الذي تعفن وتم تخصيبه بفيروس عدم الاستقرار؛ مما جعله أكثر ابتزازًا للفقراء والمهاجرين، الذين يفرون من الفقر والحروب وتغير المناخ للعمل كالعبيد لدى الشركات الجشعة متعددة الجنسيات والإيطاليين»، ومع ذلك فإنَّ العائد لا يفي بنفقاتهم حتى آخر الشهر وأولئك الذين يواجهون البطالة والاستغلال. ظروف تتعلق بالفئة الأكثر هشاشة وهامشية؛ أولئك الذين يُعتَبرون «غير مرئيين»ويتظاهرون بعدم حدوث شيء، في رحلة قام بها المؤلف ماركو أوميتزولو بالتسلل بين العمال الهنود في تحقيق ميداني بدأ من الملاحظة وذهب إلى التعبئة من الشكاوى والمظاهرات وصولاً إلى الإضرابات لإسقاط نظام يمكن هزيمته. إنه كتاب مهم يقودنا بمنهجية صارمة إلى معرفة حياة العمال الزراعيين وآليات الاستعباد والاستغلال، مصالح مافيا الزراعة وأيضًا إمكانية الخلاص من خلال نضال العمال ووحدتهم وشجاعتهم في تجربة فريدة للتجمع ونضج الوعي «الطبقي» للمطالبة بحقوقهم.

إجمالي حجم مبيعات مافيا الزراعة هو ٢٤,٨ مليار يورو وفقًا للتقديرات الأخيرة الواردة في التقرير السادس لمعهد الأحصاء أوري سبس (Eurispes) من إيرادات الزراعة في إيطاليا التي تنتجها ٨٠ منطقة زراعية؛ حيث ظروف العمل والسكن والصحة فيها، في انتهاك مستمر لحقوق الإنسان حيث الاستثناءات قليلة. في أوروبا، هناك حوالي ٨٨٠ ألف عامل أُجبِروا على ممارسة أشكال مختلفة من التبعية والابتزاز. الشركات التي تجني المال من عمل النساء والرجال الذين غالبًا ما يكونون أجانب يتم استغلالهم في البيوت الزراعية المحمية الإيطالية، كحث العمال على تناول المنشطات للعمل كعبيد، شباب يموتون من التعب، نساء يعانين من الابتزاز والعنف الجنسي كل يوم. نظام متفشٍّ ومفترس يدفع بعض العمال إلى الانتحار، بينما يشترك الرؤساء والعرابون في غنائم تبلغ حوالي ٢٥ مليار يورو سنويًا.

وفي إيطاليا ٦٢٪ من عمال الزراعة الموسميين ومعظمهم من المهاجرين، لا يحصلون على الخدمات الأساسية و٦٤٪ منهم لا يحصلون على المياه الجارية و٧٢٪ تظهر لديهم أمراض بعد أنشطة الزراعة والحصاد لم يكونوا يعانون منها من قبل.

تحليل الظاهرة أمر لا هوادة فيه؛ حيث من الأفضل عدم طرح الأسئلة عندما نرى على رفوف محلات السوبر ماركت منتجات متنوعة بأسعار منخفضة جدًا؛ بحيث تكون أقل قيمة من سعر التكلفة، وإلا فإننا سنفهم بسهولة أنها ناتجة عن الاستغلال الوحشي لعمال الأرض «إن مافيا الزراعة هي داخل النظام لأنها تساهم في الناتج المحلي الإجمالي، برفاهية البلد، والاعتدال في تكاليف السلع الأساسية، وتوفير الموارد للفقراء الذين لا يستطيعون شراء المنتجات المميزة بسبب ارتفاع التكاليف»، وعلينا أن نكون هادئين لأن الفاكهة والخضراوات والخبز واللحوم... وغيرها من الضروريات الأساسية يجب أن تصل كل يوم إلى محلات السوبر ماركت، في الوقت نفسه الذي تمر فيه صور العمال وجميعهم تقريبًا من الأجانب أمام أعيننا يعملون مقابل بضعة يورو في اليوم ويعيشون ظروفًا غير صحية وغير إنسانية، إضافة إلى ارتباطهم بظواهر خطيرة منها الأدوية التي يضطر عمال الرقيق إلى تناولها من أجل مقاومة الآلام التي تسببها العمالة اليومية اللاإنسانية عن طريق مضغ القليل من بذور الخشخاش المجفف المستخدم لاستخراج الكوكايين لتأثيره المسكن عن طريق شرائه من تجار المخدرات، وبإذن ضمني من صاحب العمل أو أي نوع آخر من المخدرات والمؤثرات العقلية المسببة لعدم الشعور بالإرهاق والألم، ليتحول العديد من الشباب الهنود من أيدٍ مفيدة إلى السيد إلى أيدٍ مفيدة لرؤساء الاتجار بالمخدرات في غضون بضع سنوات.

وفي هذا الواقع، دخل ماركو أوميتزولو بالصدفة، وظل هناك لأكثر من عقد من الزمان، في البداية كمراقب خارجي ومن ثم كباحث، حتى أصبح عضوا نشطًا معهم عندما أدرك أن الطريقة الحقيقية الوحيدة لفهم حياة وديناميكية العمل الزراعي هي أن تصبح واحدًا منهم.

موضوع تحليل ماركو أوميتزولو هو المجتمع الهندي من السيخ في أغروبونتينو (محافظة لاتينا والمناطق المحيطة بها) قرب العاصمة روما، والذي يعمل أفراده في قطاع الزراعة، في بيوت الزراعة المحمية وفي الهواء الطلق، والتي تنتج بشكل رئيسي الخضار والفواكه وحصاد محصولين أو ثلاثة كل عام. إن مجتمع الهنود متحد ومتماسك للغاية قَدِموا جميعهم من منطقة (البنجاب) ولديهم ثقافة دينية تقوم على قبول الإرادة الإلهية والتعايش السلمي. يبلغ عددهم الرسمي ١١ ألف شخص في محافظة لاتينا، ويمكن أن يصل ضعف هذا العدد، موزعين في الريف في المناطق المنتشرة من أغروبونتينو خلف البيوت الزراعة المحمية والتي يعبرونها بدراجاتهم بدون أضواء وعمائم ملونة للذهاب للعمل.

غالبًا ما يُجبَر العمال من الهنود على العمل من عشر إلى أربع عشرة ساعة في اليوم؛ بما في ذلك السبت والأحد، وبأجر ثلاثة يورو تقريبًا في الساعة مع عقد عمل قانوني يتحدث عن مدة ست ساعات لمدة ستة أيام في الأسبوع بأجر إجمالي ٩ يورو للساعة. وكما هو واضح في الكتاب فإن ظروف عمال الزراعة متشابهة في جميع أنحاء الأراضي الوطنية، وبالتالي فهي دراسة متعمقة و قَيِّمة للقطاع بأكمله. أجور متدنية إذا لم تتم سرقتها من قِبَل السيد، نوبات عمل صعبة كل يوم وطوال العام؛ مما أدى إلى انتحار اثني عشر عاملاً هنديًا معلقين في بيوت الزراعة المحمية لأسيادهم خلال ساعات العمل في فترة الثلاث سنوات ٢٠١٦-٢٠١٩، الإهانات والعنف حتى على النساء، غالبًا ما يكون راتب العاملة أقل بمقدار الثلث من راتب زميلها الذكر في العمل، ثم هناك مسألة الابتزاز والعنف الجنسي، استخدام المنتجات الضارة دون أي حماية، الخوف والألم وأمراض تتم معالجتها بتناول المواد المنشطة التي تخفف من الجوع والإعياء. هناك حديث عن مواد سامة ومسببة للسرطان مفيدة

للمحاصيل ولكن آثارها مدمرة للجميع منتشرة بواسطة أدوات البخاخ الذي يتنفسه العمال وكأنهم يستحمون به؛ لأن السيد يمر مع آلة البخاخ أثناء جمعهم المحاصيل، وهي محظورة في إيطاليا ومستوردة بشكل غير قانوني من الصين، جُلِبَت إلى موانئ نابولي وغويا تاورو ويتم تهريبها ليلاً وشراؤها بشكل غير قانوني، مواد تصيب الهواء الذي يتنفسه السكان وكذلك المياه الجوفية. العمال، أحيانًا حتى الأسياد والمستهلكين الذين يشترون المنتجات يعتقدون أنها أصلية.

تم جمع نتائج تحقيق الكاتب الميداني الطويل والقوي في كتاب« تحت السيد، الرجال والنساء والعرابون في مافيا الزراعة الإيطالية»، ويروي فيه المؤلف قصص المهاجرين من خلال روايته عن نفسه، والنتيجة نظرة ثاقبة لدولة بأكملها تتصارع بين ما هو صحيح وما هو مناسب، بين العدالة والانتهازية، بين المكر والخداع وبين الأخلاق والشر. تم فيها قول وقراءة كل شيء عن المهاجرين فهم مُتَهَمون بسرقة العمل وهم سبب البطالة وعدم الاستقرار وتدني الأجور، ولكن هل هو خطؤهم حقا؟ هل تنشأ المشاكل بالفعل من جنسية العمال؟

ويركز ماركو أوميتزولو على هذا الجانب طويلا، مشددًا على أنه بالتأكيد ليس مسألة عرق بل سياسة: «إنها ليست مسألة السماح للمهاجرين بالغرق من أجل العيش بشكل أفضل للإيطاليين بل إن مافيا الزراعة الإيطالية هي نتيجة الهمجية وعقود من السياسات النيوليبرالية »، أولئك الذين يرغبون اليوم في فصل الإيطاليين عن الأجانب ورفع شعار «الإيطاليون أولاً» «إلى مرتبة قانون دستوري»، لم يفهموا أو يتظاهروا بعدم فهم أن الإيطاليين الفعليين هم من« يعيشون بالفعل في ظروف الفقر والاستغلال والإقصاء الاجتماعي». وضع يمكن اعتباره بؤسًا حقيقيًا من ناحية اقتصادية ولكن فوق كل شيء من ناحية ثقافية وفكرية وروحية.

المؤلف على حق عندما يقول إنَّ المشكلة ليست في المهاجرين، ولكن في أرباب العمل الذين يستغلون العمال بغض النظر عن لون بشرتهم أو جنسيتهم. ليس المهاجرون هم الذين يسرقون الوظيفة بل السيد الذي يسرق أجورهم وحقوقهم. ويعني مصطلح سيد هنا كلا من صاحب العمل الفرد والنظام.

يؤكد ماركو أوميتزولو أن أسلوب اللغة المستخدمة بشكل شائع يُظهِر عدم الحساسية أو الاستخفاف والأسوأ من ذلك الأحكام المسَبّقة في كثير من الأحيان، فيستخدم مصطلح العبد أيضًا بكل سهولة في تداول

المعلومات. ما زلنا لا نفهم أنه بهذه الطريقة أو من خلال اعتماد «لغة السيد» فإننا نقوم بإضفاء الشرعية على شكلها وقوتها ومعها النظام بأكمله. بدلاً من ذلك، يجب التأكيد بشدة على أن هؤلاء ليسوا عبيدًا بل إنهم أشخاص مُستَعبَدون، رئيس، سيد، عبد: تشير إلى أشكال الهيمنة والتبعية التي يجب التغلب عليها لصالح مصطلحات أكثر ملاءمة مثل صاحب العمل والعامل والعاملة.

بعد حوالي عشر سنوات من زرع بذور قال البعض إنها كانت في مهب الريح لحياة محطمة وسيقان متعبة في الليل وتتحرك بصمت داخل بيوت الزراعة المحمية، حان وقت الثورة والنضال والذي هو برأي أوميتزولو إقناع أولئك الذين يعملون بالتحدث ليس كالأسياد والعبيد ولكن كأرباب عمل وعمال لأنه كما قال ناننى موريتتي إن الكلمات مهمة وهذا يعني عدم الاضطرار إلى خفض رأسك لأولئك الذين يستغلونك.

مثلت النضالات والتي شارك فيها ماركو أوميتزولو وآخرون مثله، والتي نفذها العمال الزراعيون المهاجرون في السنوات الأخيرة في أنحاء مختلفة من إيطاليا نقطة تحول لجميع العمال المُستَغَلين ودلالة على أن الدولة لم تعد تريد أن تكون عنصرية ورجعية وعنيفة ومافيا.

كان أساسيًا فيها التحالف الوثيق بين المؤسسات والنقابات الوطنية والإقليمية والمحلية التي دعمت العمال في مطالبهم، كالنيابة وجهاز الشرطة ومدعي عام المحافظة الذين استمعوا للشكاوى وقبلوها وأصدروا أحكاما على رجال الأعمال المحليين لانتهاك تشريعات العمل والتحريض على الرق والمافيا.

وبالتالي؛ كان تاريخ الخلاص في المجتمع الذي تم تأكيده في ١٨ أبريل ٢٠١٦ هو يوم مهم، نقطة وصول بعد سنوات من المعاناة والمخاوف والمناقشات والشكاوى: العمال الهنود و بدعم من عدة نقابات أعلنوا الإضراب من أجل حريتهم وحقوقهم. نزل أربعة آلاف عامل زراعي إلى الشوارع في محافظة لاتينا أمام مكتب ممثل الدولة مع سابق معرفتهم أنهم يخاطرون بالثأر منهم والعنف وحالات التسريح من العمل، ومع ذلك شعروا بأنهم جاهزون وقويون و بدعم أيضًا من قِبَل مؤسسات تدافع عن جميع حقوقهم مهما كلف الأمر، وقد وصلت الشكاوى إلى البرلمان وأعطى الأساس للموافقة على قانون رقم ٢٠١٦/١٩٩ ضد استغلال العمال، وقام بالتلويح بالاقتراح الذي تم الإجماع عليه على الفور من قِبَل النقابات والبرلمانيين والمنظمات التطوعية لتنظيم الأجانب الموجودين على الأراضي بدون وثائق دفاعًا عن الاقتصاد، ولكن وفوق كل شيء الحقوق والشرعية والصحة للجميع التي مدت يدها إلى قطاع الأغذية الزراعية والعاملين الزراعيين وأيضًا إلى تناقض المنتجات الزراعية والاتجار بالبشر من أجل الاستغلال في العمل.

ومنذ ذلك الحين، تغير شيء ما لصالح العمال، لكن أوميتزولو يشير إلى أن رد فعل الرؤساء المستعدين لاستغلال أولئك الذين هم أضعف وأقل اطلاعاً، كان ولا يزال خفيًا وعنيفًا. في الواقع، كان هناك تسريح للعمال وفي بعض الحالات تم استبدال العمال الهنود بعمال أجانب، معظمهم من الأفارقة المقيمين بشكل غير قانوني وأُجبِروا على قبول أجور وظروف عمل اعتقد العمال الهنود أنهم هزموها.

وفي الختام، يقول ماركو أوميتزولو إن اختياره سياسي، فهو اختار المُستَغَلين لأنهم يعرفون أحيانًا كيف يصنعون تلك الثورات الفريدة والبطولية التي تُعَلِم الآخرين أن التغيير المحتمل يبدأ من القدرة على الانخراط في المجتمع ويستذكر هنا قول أحد الكهنة «بين القول والعمل هناك وسيلة للبداية».

- الكتاب: "تحت السيد: الرجال والنساء والعرابون في مافيا الزراعة الإيطالية".
- المؤلف: ماركو أوميتزولو.
- الناشر: مؤسسة جانجاكومو فيلترينيللي، إيطاليا، 2019م.
- عدد الصفحات: 317 صفحة.

* مترجمة عربية مقيمة في إيطاليا

علم الخلود.. من الإكسيرات إلى التيلوميرات
أليخاندرو نافارّو يانييث

فيصل الحضرمي *

للكاتب الإسباني ألخاندرو نافارّو يانييث اهتمامٌ كبيرٌ بتاريخ العلم، خاصةً ما يتعلق منه بالكيمياء، بحكم تخصصه في مجال الكيمياء الحيوية. وقد صدر له قبل الكتاب الذي بين أيدينا عدةُ مؤلفاتٍ في هذا الإطار، نذكر منها: «سر بروميثيوس، وقصص أخرى حول الجدول الدوري للعناصر»، و«العالم الذي هزم هتلر، ومقالات أخرى حول تاريخ العلم»، و«فايكنغ المريخ، وقصص علمية أخرى حول البحث عن حياة خارج كوكب الأرض». في كتابه هذا يُواصل الكاتب شغفه المعروف بتقصي الموضوعات العلمية الشيقة، متناولاً هذه المرة مسألة الخلود، وما يتفرَّع عنها من مواضيع متنوعة، في سردٍ يتسمُ بالرشاقة والتشويق.

يحكي الكتاب قصة توقنا للخلود. لقد وعى الإنسان حتمية الموت منذ الأزل، فخاف منه، ومنّى نفسه بقهره، فآمن بالحياة الثانية التي وعدت بها الأديان، تلك الحياة الأبدية الهانئة التي يُمكن بلوغها شرط إطاعة الآلهة وتجنب سخطها. وفي الصين، كان إمبراطورها الأول كين شي هوانغ رجلاً مُعتداً بنفسه، مُعظماً لقدرها، ولم يكن باستطاعته تقبل فكرة أنَّ رجلاً بمثل عظمته ومهابته يمكن له أن يفنى كما يفنى عامة النَّاس. كان الخلود شاغله الأول، فأنفذ مبعوثيه في أطراف الأرض يبحثون له عن الإكسير الذي يضمن له الخلود، فكانوا يعودون خائبين في كل مرة. وأوكل إلى أطبائه مُهمة تحضير وصفة تجنبه الموت، فوصفوا له الزئبق، فاستغنى به عن الماء، وصار يكثر من شربه إلى أن مات متسمماً به.

كان كين شي هوانغ رجلاً ذكياً وقاسياً، استولى على الحكم في مملكته، ثم حارب ما يعرف بالممالك المحاربة، وانتصر عليها، ليُنصِّب نفسه إمبراطوراً على كامل الصين. وما إن استتب له الأمر في الإمبراطورية الجديدة، حتى ألغى الإقطاع، وبنى شبكات القنوات والطرق، ووحد العملة والكتابة، واستحدث العديد من الإجراءات ذات الطابع القانوني والتجاري. غير أنَّ ما سيجعله معروفاً بالنسبة لنا أكثر من أي شيء آخر هما سور الصين العظيم، الذي شرع ببنائه إبان حكمه، وجيش الطين؛ تلك التماثيل الطينية التي عثر عليها مدفونةً بالقرب من ضريحه، والتي يربو عددها على الثمانية آلاف، وتمثل أحصنةً وجنوداً وموظفينَ وموسيقيين ولاعبي أكروبات، بأحجام طبيعية، وبملامح وجه تميز واحدهم عن الآخر، بالإضافة إلى مئة وثلاثين عربة حربية، وغيرها من الأدوات التي قدّر الإمبراطور أنه سيحتاجها في الحياة الثانية.

من جهتهم، لم يكتف المصريون القدامى بعبادة الموتى معتقدين في أبدية الأرواح، بل وآمنوا أيضاً بضرورة حفظ الجسد للحياة الأبدية، ما دفعهم إلى ابتكار طريقة لتحنيط الأجساد، بحيث يضمنون للمومياء مكاناً آمناً للاستلقاء بسلام طوال الأبدية. النجاح النسبي لتقنيات حفظ الجسد، وما لفها من ألغاز، وما أحيطت به مكوناتها من سرية تامة، سيختلط مع مرور الزمن بالأساطير والخرافات حول تمكن بعض الأشخاص من العيش لآمادٍ طويلة، بفضل عثورهم على مواد من شأنها إطالة الحياة، وتلافي أمراض الشيخوخة. وقد كان للأديان نصيب من هذه الخرافات أيضاً، وتحديداً فيما يتعلق بالقديسين والأتقياء، بينما راج في الأوساط الشعبية الاعتقاد بوجود أرواح شريرة لا تعرف الموت، مثل مصاصي الدماء.

لكن الأمر اتخذ طابعاً مُختلفاً مع قدوم العلم، إذ ستتعامل الدراسات بجدية أكبر مع فرضية وجود وسائل موضوعية قادرة على إطالة أمد الحياة، خاصةً وأن شيوع الاهتمام بالنظافة الشخصية قد أدى إلى زيادة ملحوظة في مُتوسط العمر المتوقع للفرد، كما في متوسط عمر السكان. ورغم هذه الزيادة، فإن العمر الأقصى الذي يمكن أن يحياه الفرد ظل يراوح مكانه، وهو ما شكل لغزاً انبرى العلم لحله بكامل طاقته. واليوم، بفضل التجارب التي لا تنقطع على البشر والحيوانات، قطع العلم شوطاً كبيراً في حل هذا اللغز، وفهم الآليات الكامنة وراء طول العمر.

في بداية ستينيات القرن الماضي، كان يعتقد أن الخلايا البشرية المزروعة في المختبر بإمكانها الانقسام عدداً لا نهائياً من المرات، ما يعني أنها خالدةٌ افتراضياً. لكن عالم التشريح الأمريكي ليونارد هايفلك سيفند هذا الزعم فيما بعد، مبيناً أنَّ الخلايا السرطانية هي وحدها من يمكنه الانقسام إلى ما لانهاية. وتكريماً لهذا العالم، سيُعرف العدد الأقصى من الانقسامات الذي يمكن للخلية أن تحققه باسم «حد هايفلك». وفي العقد الذي تلاه، توصل الروسي ألكسي أولوفنيكوف إلى وجود ارتباط بين الساعة البيولوجية وبين نهايات الكروموسومات، أو ما يُدعى «التيلوميرات». يلعب التيلومير دوراً رئيسياً أثناء عملية مضاعفة حمض الدنا، الحيوية لتجدد الخلايا، إذ يحمي الخلية من فقدان معلومات هامة، كما يضمن استقرار الكروموسوم، ومنعه من الاندماج مع كروموسومات أخرى، وهو ما يُؤدي إلى نتائج كارثية حال وقوعه.

يتناقص طول التيلوميرات في كل مرة تنقسم فيها الخلية، إلى أن تصبح من القِصر بحيث تتوقف الخلية عن الانقسام، وهي الظاهرة المعروفة بالشيخوخة الخلوية، أو «هرم الخلية». غير أنَّ جزيئاً هاماً، هو إنزيم التيلوميريز، باستطاعته إطالة التيليوميرات من جديد، واستئناف عملية انقسام الخلية بالتالي. يتميز إنزيم التيلوميريز بنشاطه الكبير أثناء التطور الجنيني، لكن نشاطه يتقلص بشكلٍ كبير في خلايا الأشخاص الراشدين، وذلك لتفادي تسرطن الخلايا. لقد أظهرت الدراسات التي أجريت على الفئران بهدف تحديد علاقة التيلوميرات بالشيخوخة، أن إطالة هذه المناطق من الكروموسومات ساهمت في تجديد شباب أنسجة عضلة القلب. كما أدى تحفيز نشاط إنزيم

التيلوميريز في فئران أخرى إلى تحسين صحتها، وإطالة عمرها. كما أظهرت الدراسات أنَّ الفئران التي كان التيلوميريز خاملاً فيها عاشت لفترة أقل نسبياً، كما أصيبت بأمراض لا تحدث في العادة، أو أنها تحدث في سن متأخرة.

وفيما يخص البشر، بات من المعروف أن ثمة أمراضاً ذات ارتباط مُباشر بوجود خلل وظيفي في التيلوميرات. كما ترجح أحدث الدراسات أن العادات والعوامل البيئية التي لها تأثير كبيرٌ على الصحة وطول العمر، مثل التوتر، والسمنة، والتدخين، قد يكون لها دورٌ في إنقاص طول التيلوميز. وينسحب الأمر نفسه على بعض العادات الغذائية، من قبيل الإفراط في تناول السكر. ومع ذلك، وبالرغم من أنه قد ثبت علمياً أن الخلايا التي أعيد تنشيط إنزيم التيلوميريز فيها تجاوزت حد هايفلك بكثير، فإن هذا لا يعني أنَّ الحل الأمثل لمشكلة الشيخوخة يكمن في إطالة التيلوميرات صناعياً، وثمَّة أسباب وجيهةٌ خلف ذلك. فقبل كل شيء، ليس التناقص في طول التيلوميرات العامل الوحيد المؤدي إلى التقدم في السن. كما أنه ليس معروفاً على وجه الدقة حجم الدور الذي يلعبه هذا التناقص في عملية الشيخوخة. علاوةً على ذلك، فإن الخلايا التي تتجاوز حد هايفلك تنحو لأن تتطور إلى خلايا سرطانية، وبالتالي فمن غير المجدي تنشيط التيلوميريز دون أن يصاحب ذلك القدرة على التحكم في الجينات الأخرى التي تُسهم في تكون الأورام السرطانية.

يعتبر التراكم التصاعدي للعيوب في الكروموسومات أحد الأسباب الأخرى المؤدية لتقدم السن، وهي عيوبٌ تنشأ نتيجةً لعوامل داخلية وأخرى خارجية. من بين هذه العوامل، الأخطاءُ العشوائية التي لا يمكن تفاديها خلال عملية مضاعفة الدنا، والأشعةُ ذات التأثير الأيوني، والسموم، والفيروسات، و«الجذور الحرة». هذه الأخيرة عبارة عن جزيئات أكسجين يفرزها الجسم أثناء العملية الأيضية، وتلعب دوراً حاسماً في الدفاع عن الجسم ضد مختلف أنواع العدوى، إلا أنها تتسبب مع مرور الزمن في تدمير البنى التي تتكون منها الأنسجة، فيما يُعرف «بالإجهاد التأكسدي». توظف كل خلية من خلايا جسدنا مجموعة من آليات الإصلاح المتوفرة لديها، للحد من الضرر الذي تُلحقه

العوامل المذكورة بحمضنا النووي، إلا أن جميع هذه الآليات غير كافية في الحقيقة. لذا، فإن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن، هو ما إذا كان علينا مساندة خلايانا في سعيها لحماية حمض الدنا، عبر التدخل من الخارج.

في هذا السياق، يأتي دور مضادات الأكسدة التي كان الكيميائي الأميركي دينهام هارمان من أوائل الذين افترضوا إمكانية استخدامها في محاربة الشيخوخة منتصف القرن الفائت، وذلك نظراً لقدرتها على تحييد الجذور الحرة. إن الأبحاث المتعلقة بظاهرة الشيخوخة تجري في عالم يضج بالصحافة الصفراء، والباحثين المثيرين للجدل، ممن هم على استعداد للمتاجرة بالوهم. هكذا تسربت هذه الفرضية إلى جميع مناحي الحياة في العقود الأخيرة، من الغذاء إلى مستحضرات التجميل، وانتشرت في الأسواق منتجاتٌ لا حصر لها يتم الترويج لها باعتبارها مقاومة للشيخوخة، لاحتوائها على خواص مضادة للأكسدة. إن شيطنة الجذور الحرة، وتمجيد مضادات الأكسدة، يخفيان وراءهما تجاهلاً كلياً لما أصبح جلياً بالنسبة للعلماء منذ عدة سنوات، وهو أنه لا توجد صلة مباشرة بين الإجهاد التأكسدي وتسريع عملية التقدم في السن. ليس هذا فحسب، بل وأظهرت بعض الدراسات أن الإجهاد التأكسدي قد يكون له دور إيجابي في إبطاء عملية الشيخوخة في بعض الكائنات. يضاف إلى ذلك أنه لا توجد دراسة واحدة إلى اليوم تثبت الزعم القائل بأن استهلاك مضادات الأكسدة يمكنه الإسهام في إطالة العمر.

كيفما كان الأمر، فإن الإصلاح الدؤوب للأعطال التي تلحق بالآلات البيولوجية التي تكوّن خلايا أجسادنا يبدو عملاً مضنياً للغاية، وخارج نطاق قدرتنا. ولربما كان من الأجدى لنا التركيز على استبدال الآلات البيولوجية المتضررة عوضاً عن إصلاحها. في عالم الحيوان، هناك عدد من الحيوانات القادرة بالفعل على إعادة تخليق قطع كاملة من أجسادها في حال فقدانها، كالهيدرا، والسحلية، والسمندل، وبعض القواقع والأسماك. وتشترك جميع هذه الحيوانات في خاصية مهمة هي امتلاكها لكمية جيدة من الخلايا الجذعية الجاهزة في أية لحظة لإعادة بناء العضو المفقود، بعكس بقية الحيوانات التي تفقد معظم خلاياها الجذعية بنهاية المرحلة الجنينية، باستثناء خلايا الدم، والخلايا الجلدية. مع ذلك، فإن التطورات المتلاحقة في مجال الطب التجديدي تدعو إلى التفاؤل فيما يخص إعادة بناء الأعضاء المعطوبة، باستخدام خلايا جذعية معينة قادرة على النمو والتطور إلى أي نوع من الأنسجة.

على أية حال، وأياً كان مقدار التقدم الذي سنحققه فيما يتعلق بإطالة أمد حياة الإنسان، فإنه لا ينبغي لنا تجاهل ما قد ينجم عن ذلك. وإذا ما ألقينا نظرةً استشرافية على المستقبل، فإنَّ العقود القادمة ستشهد طفرة كبيرة في طول عمر الإنسان، حيث سيكون بإمكان غالبية البشر التمتع بحياة مديدة تبلغ المائة عام، إلا أن الأمر لا يخلو من مخاطر. فقد تطور التنظيم الاقتصادي والاجتماعي الذي يعيش البشر في كنفه اليوم بشكل تدريجي بطيء عبر عدة قرون، وأي تغييرات كبيرة من شأنها أن تقلبه رأساً على عقب، وفي زمنٍ قصير نسبياً.

- الكتاب: علم الخلود، من الإكسيرات إلى التيلوميرات.
- المؤلف: أليخاندرو نافارّو يانييث.
- الناشر: ألموثارا، إسبانيا، باللغة الإسبانية، 2018.
- عدد الصفحات: 208.

* كاتب عُماني

سبينوزا والطريق إلى السعادة
فريديريك لونوار

سعيد الجريري*

كرس الفيلسوف باروخ سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) حياته كلها للفلسفة، وبسبب أفكاره الجريئة التي قلب بها وجهات النظر السائدة في القرن السابع عشر حول الإله والأخلاق رأسًا على عقب، غالبًا ما يُنظر إليه على أنَّه رائد التنوير والديمقراطيات الحديثة. لكن مُهمته الرئيسية كانت على الأرجح اكتشاف الخير الحقيقي، وإيجاد طريقة حياة تُؤدي إلى السعادة الأبدية.

فهو يجادل بأنَّ هذه السعادة لا تُنال بالسعي وراء الشهرة أو التملك، ولكن بالعيش بطريقة بسيطة، تقوم على الصدق وطول الأناة والاعتدال. ويُمكن أن يساعدنا العقل وتجاربنا الحياتية في هذا المسعى. في هذا الكتاب يُظهر لينوار بشكل مُقنع ورائع أنَّ هذه الأفكار عن سبينوزا خالدة، وهي «معجزة» سبينوزا الذي ما زال يشغل المفكرين منذ القرن السابع عشر، فهو لم يكتب لمعاصريه، بحسب الفيلسوف السياسي ليو شتراوس، بقدر ما كتب لنا نحن المعاصرين، إذ صاغ الأفكار الأساسية للمجتمع الغربي (والإنساني) المُعاصر. إذ أقام، بشجاعة، قطيعة مع الأعراف والقيود المُهيمنة في عصره، وعمل على تطوير فلسفة راديكالية لا هوادة فيها لما تزل قابلة للتطبيق حتى الآن.

فريديريك لونوار (١٩٦٢) - عالم الاجتماع الفرنسي، مؤلف أكثر من خمسين كتابًا، معظمها عن فلسفة الدين، أحد المعجبين بفلسفة سبينوزا، كتب Le miracle Spinoza في عام ٢٠١٧، الذي تُرجم الآن إلى الهولندية بعنوان «سبينوزا والطريق إلى السعادة»، وينهج فيه نهج سبينوزا في بحثه عن الحقيقة والسعادة الحقيقية، فقد عاش سبينوزا الذي طُرد من الجالية اليهودية في أمستردام عام ١٦٥٦، حياة التأمل والفلسفة التي بلغت ذروتها في كتابه الشهير (علم الأخلاق)، وهو تحفة فلسفية لا تزال مصدر إلهام وتحدٍ فكري للكثيرين.

يتألف كتاب لونوار من مقدمة وجزأين رئيسين تعقبهما خلاصة وخاتمة. خصص المُقدمة لما يسميه «معجزة»سبينوزا، وجعل الجزء الأول لمقاربة «سبينوزا الثوري سياسياً ودينياً» مُتضمناً تحوله الفلسفي، معاناته، تفكيره الحر، قراءته النقدية للكتاب المقدس، نظرته إلى المسيح، خيانة اليهودية؟، ثم التمهيد لعصر التنوير. وعنون الجزء الثاني بـ: عبقري الحكمة، متناولاً فيه: الأخلاق وسيلةً لتحقيق الفرح التام، إله سبينوزا، زيادة القوة والكمال والفرح، فهم المشاعر التي تحركنا، بذر التوق، ما وراء الخير والشر، والحرية والخلود والحب. أما الخلاصة فخصصها لـ «عظمة وحدود السبينوزية»، ثم ختم الكتاب بالرسائل المتبادلة مع روبرت مسراهي.

عن خلفية تلمسه السبيل إلى فلسفة سبينوزا يشير لونوار في المقدمة إلى أنَّ للحياة في بعض الأحيان منعطفات غريبة. فهناك عبقريان لم أكن أعرفهما، ولدا على بعد شهر واحد، وعاشا بشكل متواضع للغاية على بعد عدة أميال، وتوفيا في سن مبكرة نسبيًا (٤٣ و ٤٤ عامًا) وكانا فقيرين جدًا لدرجة أن أقرب أقربائهما ورثوا عنهما الديون فقط. صحيح أن عملهما اكتسب سمعة معينة خلال حياتهما، لكن عبقريتهما التي أثرت لاحقاً في العالم بأسره، لم يتم الاعتراف بها إلا بعد قرنين من وفاتهما. كان أحدهما رسامًا والآخر فيلسوفًا. ولد كلاهما في هولندا عام ١٦٣٢. لم يعرف يوهانس فيرمير وباروخ سبينوزا بعضهما بعضاً قط، لكن بالإضافة إلى سيرتهما الذاتية، تُظهر أعمالهما أيضًا علاقة مُفاجئة: الضوء. تنعكس جودة الضوء في غرف فيرمير الداخلية في الدليل الواضح لسبينوزا، فتغير نظرتنا للإنسان والعالم. لقد تعرفت على سبينوزا في وقت متأخر، ولكن تبين أنها واحدة من أكثر اللقاءات التي لا تنسى في حياتي. منذ تلك اللحظة فصاعدًا، فهمت أيضًا سبب كون فيرمير هو الرسام الذي أثر فيَّ بعمق: تناغم الضوء في لوحاته، مثل تفكير الفيلسوف، له تأثير مهدئ للغاية.

قبل مناقشة الأخلاق، يقف لونواز إزاء كتابات سبينوزا الأخرى، مثل رسالة في اللاهوت والسياسة، ثاني أعظم أعماله، التي تعد نداءً قوياً من أجل حرية الفكر والفلسفة، ولحرية النظر النقدي في كل شيء، بما في ذلك الدين. إذ لم يكن سبينوزا ينظر إلى الكتاب المقدس على أنه عمل إلهي، بل كان يراه ثمرة من ثمار عمل الإنسان المليء بالتناقض الداخلي. يقول سبينوزا «إن كل من يعتبر الكتاب المقدس كلام الإله يجعل من الدين خرافة». وفي سياق الدفاع عن حرية التعبير. يلخص سبينوزا وجهة نظره بإيجاز أن:«هدف الدولة هو الحرية»، وهكذا يبرهن على أنه، وفقًا للينوار، أول مفكر حديث للديمقراطيات الليبرالية، فهو فيلسوف المجتمع العلماني الحديث، الذي يقدم مدينة أمستردام على أنها رمز استثنائي.

ويستغرق لونوار في كتاب علم الأخلاق، المبني هندسيًا من التعريفات والبديهيات والنظريات والبراهين، ويهدف إلى إثبات الطبيعة العلمية لرؤيته، مقارباً السؤال المركزي فيه: كيف ينبغي أن يعيش الناس ليسعدوا؟ فهناك فرضية مهمة لسبينوزا هي أن العالم يتكون من مادة واحدة يسميها «الإله أو الطبيعة»، والتي يتكون منها كل شيء، وينبع منها كل شيء بالضرورة. ليس الإله، كما في التقليد اليهودي المسيحي، متسامياً، كائنًا خارج عالمنا، ولا يوجد إله جوهري، وكل شيء موجود في الإله. فالإله ليس قوة خارجية، بل سبب داخلي، وتحدث الحياة وفقًا لقوانين الطبيعة الحديدية التي ليست سوى قوانين الإله. كما لاحظ ألبرت أينشتاين ذات مرة، «أنا أؤمن بإله سبينوزا، الذي يكشف عن نفسه في انسجام كل ما هو موجود، ولكن ليس بالإله الذي يتدخل في مصائر وأفعال البشر». فالطريقة الوحيدة لسعادة الإنسان هي تطوير العقل بشكل أكبر. والمعرفة المتزايدة بقوانين الطبيعة ومكاننا فيها، هي التي تمكن الإنسان من الاستخدام الأمثل لإمكانياته. إن فهم أن كل شيء يسير وفقًا للقوانين الطبيعية أمر ضروري لتكون سعيدًا. يقتبس لينوار عنه:«عندما يتقن الإنسان هذا النوع من المعرفة، فإنَّه يصبح أكثر وعيًا بنفسه وبالإله. أي أنه يكون أكثر كمالًا

وسعادة». وهكذا، يمكن أن تزدهر المحبة الفكرية للإله أو الطبيعة «مصدر النعيم الحقيقي».

إن الشعار المركزي لسبينوزا هو«لا تسخر، لا تندم، لا تُدن، لكن تفهّم»، ما يعلل عثور لونوار على موضوعه - سبينوزا والسعادة - بشكل رئيسي في «الأخلاق» على الرغم من أنَّه يوضح أيضًا التمييز بين الإيمان والعقل والسياسة. في «الأخلاق» يبحث سبينوزا عن «خير حقيقي يمكن أن يملأ العقل ويمنح الفرح التام» لكنه مثل المفكرين القدماء، لا ينحو سبينوزا إلى ترك السعادة تعتمد على الأسباب الخارجية. ذلك أننا إذا تعلقنا بالقشور، مثل الشهرة والثروات، فسوف نشعر بالحزن الناجم عن عدم ثبات تلك الأشياء. أما إذا تمسكنا بأشياء نبيلة، فإنَّ سعادتنا ستكون أكبر وأكثر ديمومة.

لقد كان سبينوزا مقتنعًا بأنَّ الواقع ذو طبيعة هندسية. الواقع، الذي يطلق عليه اسم الإله أو الطبيعة ، يخضع لقوانين ضرورية للغاية. فنحن نختبر أنقى فرح عندما نجعل طبيعتنا مُنسجمة مع الطبيعة، عندما ننسجم مع الكون بمساعدة العقل. ولعل رؤية سبينوزا للبشرية جديدة ومدهشة. بعد ترك ثنائية العقل - الجسد لديكارت، افترض أنَّ الروح هي التعبير الفكري عن الجسد، والذي بدوره يمثل التعبير المكاني أو المادي للعقل. وهناك فجوة أخرى داخل الإنسان. هذا لأنه يواجه نوعين من «التأثيرات» الفرح والحزن. العالم الخارجي له تأثير على ذلك. فعندما ينسجم عمل فكرة أو وجود خارجي مع طبيعتنا، فإنه يزيد من قوة حياتنا. في غياب الانسجام، تتضاءل تلك القوة، زيادة قوتنا تقودنا إلى الفرح، ونقص قوتنا يؤدي إلى الشعور بالحزن. لذلك ينبغي تنظيم الحياة ، بمساعدة العقل، بطريقة تقلل من الحزن وتزيد الفرح.

وبدلاً من إدانة السلوك البشري، يُمكننا تحليله بشكل أفضل، كما يقول سبينوزا الذي ينسجم، وفقًا للونوار، مع المسيح ومع فرويد. فلتحليل السلوك البشري، تعد معرفة التأثيرات أمراً بالغ الأهمية. فسلوكنا ينبع من التواصل مع أشكال الوجود والأفكار التي نشأت لدينا منذ ولادتنا والتي أنتجت جميع أنواع التأثيرات فينا. خلاصة القول هي أننا نحدد مصيرنا بأيدينا.

هناك دروس الحياة المُدهشة التي يُمكن تعلمها من حياة سبينوزا وتفكيره الاستثنائيين، كما يعرضها لونوار في هذا الكتاب. إذ لم يكن سبينوزا مُفكرًا ثوريًا فحسب، بل كان قبل كل شيء فيلسوفًا لفن العيش والسعادة. ما يعني أن فلسفته يُمكن أن تساعدنا في

إيجاد معنى للحياة - وربما حتى السعادة.

سبينوزا هو أحد هؤلاء الكتاب الذين يمكنهم تغيير حياتك - يؤكد لونوار - فلم يعد من المُمكن احتساب عدد المفكرين العظماء الذين يقولون إنَّهم مدينون له بامتنان عميق، من بيرجسون إلى أينشتاين. ويقتبس الكاتب من غوته هنا لأنه يوضح بشكل جميل كيف يُمكن لسبينوزا أن يشحذ ذكاءنا ويهدئ قلوبنا، حتى عندما يبدو مزاجنا مختلفًا تمامًا عن مزاجه. هذا ما يقوله مؤلف فاوست في سيرته الذاتية«تعرفت على شخصية وتعاليم إنسان غير عادي - غير مُكتمل، هذا صحيح، لكن ذلك كان كافياً لإحداث تأثيرات ملحوظة. هذا الروح الذي كان له مثل هذه الأهمية الحاسمة التي من شأنها أن تؤثر في طريقة تفكيري بأكملها كثيرًا، كان سبينوزا. بعد البحث عبثًا في كل مكان عن مثال حكيم يلائم طبيعتي الخاصة، أخيرًا وجدته على هذا الفيلسوف. ما أدهشني في هذا العمل وجذب انتباهي لم يعد بإمكاني قوله، لكن ما قرأته هدأ من عواطفي وبدا أن منظورًا واسعًا وحرًا للعالم الحسي والأخلاقي طفق ينفتح» ما يؤكده غوته بشكل مفاجئ هنا هو التناقض بين الجانب الهندسي الجاف للغاية للأخلاقيات، والقوة المهدئة والمريحة التي يمكن أن يمارسها هذا الكتاب، خاصة على الشخصيات المتحمسة. يريد سبينوزا أن يشرح بموضوعية قدر الإمكان الذكاء العميق والانسجام اللذين يرتبط بهما الواقع. أولاً وقبل كل شيء، يعرّف الإله بأنَّه المادة الفريدة لكل ما هو موجود، ومن هنا يبذل قصارى جهده لإظهار أن كل شيء له سبب - ترتيب الكون وفوضى عواطفنا - وأن كل شيء يمكن تفسيره بالقوانين العالمية للطبيعة. كل الفوضى مجرد مظهر وليس صدفة، كما لا توجد معجزات. ومع ذلك، فإن تكن هناك معجزة واحدة نود كشفها من خلال المعرفة الحقيقية - يقول لونوار- فهي معجزة سبينوزا! كيف يمكن أن يكون هذا الرجل قد بنى في أقل من عشرين عامًا مجموعة فكرية من الأعمال عميقة بقدر ما هي ثورية؟ سنرى أن أفكار سبينوزا تشكل ثورة سياسية ودينية وأنثروبولوجية ونفسية وأخلاقية حقيقية. وإذ أخذ العقل معياراً وحيداً للحقيقة، فقد أصبح عالميًا وخالدًا، لأن العقل هو نفسه لجميع البشر في جميع الأوقات. لذلك ، فإن رسالته ليس لديها ما تخشاه من ويلات الزمن أو من السمات المحددة بزمن. ففي حين بنى رينيه ديكارت عقلانيته على الثنائية المادي - الروحي، فقد أبحر سبينوزا أيضاً تحت راية العقل، لكنه تجاوز تلك الثنائية. لقد فككت نظريته الهندسية الدقيقة في التفكير كل الأنظمة الموجودة لبناء فلسفة كاملة لم يعد فيها تمييز بين الخالق والخلق، أو بين الروحاني والمادي. إنما في حركة واحدة، يجمع بين الإنسان والطبيعة، والعقل والجسد، والميتافيزيقا والأخلاق.

لعل مواجهة سبينوزا تلك الأفكار الظلامية ذات الخلفية الدينية المهيمنة في عصره، مما يعيده إلى واجهة المساءلات الفكرية ولاسيما في عالمنا العربي والإسلامي المعاصر، حيث تهيمن الأفكار الطائفية والمتشددة التي هي صورة عابرة للتاريخ من زمن سبينوزا الذي تجاوزه هو، وتجاوزته المجتمعات الغربية، حيث لم يعد من شواغل مفكريها المتن الديني والمتشاكلين حوله، لأنه لم يعد الطرف الفاعل في مسار حركة تطورها، كما هو الحال في مجتمعاتنا التي تتطلع إلى سبيل نحو السلام ومن ثم السعادة بأفق سبينوزي، كما يبدو.

- الكتاب: سبينوزا والطريق إلى السعادة، فلسفة البساطة
- المؤلف: فريديريك لونوار، تر: مارجا بلانكيستين وإلكسندر فان كيستيرن
- الناشر: بالانس، أمستردام، 2020
- اللغة: الهولندية
- عدد الصفحات: 224

*كاتب عربي مقيم في هولندا

الأعمال المصرفية في زمن العولمة
تي. رفيندران

فيلابوراتو عبدالكبير *

يتضمن الكتاب عشرين مقالة تهاجم سياسات المصارف في القطاع العام وتصرفاتها التي تضر بمصالح عامة الناس.. ويحاول الكاتب -من خلال هذه المقالات- أن يكشف ما يجري وراء الكواليس في حقول الأعمال المصرفية لصالح الشركات العملاقة الاحتكارية. خبرات الكاتب في مجال البنوك، وهو رئيس اتحاد نقابات عمال البنوك لعموم الهند، دفعته لتناول الموضوع بأسلوب بسيط يتوافق مع مدارك عامة القراء. تُعالج المقالات عددا من الموضوعات مثل الاحتيال المالي على البنوك وانتشار العملات المزورة وغسيل الأموال السوداء والاتجاه الذي اشتد في الآونة الأخيرة في دمج البنوك بعضها ببعض وغيرها التي تتأثر بها الأعمال البنكية سلبيا.

وتاريخ نشأة البنوك في الهند يعود لسنة ١٧٧٠م؛ حيث تم تأسيس أول بنك هندي تحت اسم بنك هندوستان (Bank of Hindustan) في «كالكاتا» عاصمة الهند آنذاك. ولكن لم يُكتب له النجاح، إذ انتهت أعماله عام ١٨٣٢م. وقبل الاستقلال من الحكم البريطاني كان هناك ٦٠٠ بنك مسجل في الهند، إلا أنه لم يقدر البقاء إلا لعدد قليل منها.

خلال فترة الحكم البريطاني، قامت شركة الهند الشرقية بإنشاء ثلاثة بنوك -بنك البنغال وبنك بومباي وبنك مدراس- واندمجت تلك البنوك مع بعض تحت اسم «بنك الهند الإمبريالي» الذي أصبح فيما بعد البنك المركزي الهندي (The State Bank of India) بعد تأميمه عام ١٩٥٥م. ويُعدّ هذا البنك حاليا أكبر بنك في القطاع العام في الهند. ومن البنوك الرئيسة قبل استقلال الهند بنك إله آباد (١٨٦٥) وبنك البنجاب الوطني (١٨٩٤) وبنك «كانارا» (١٩٠٦) والبنك المركزي الهندي (١٩١١) وبنك بارودا (١٩٠٨). وجميع هذه البنوك لا تزال على قيد العمل حتى الآن.

يقول المؤلف إنَّ المؤسسات المالية في الهند بما فيها البنوك تتراكم فيها الثروة، وفي نفس الوقت يعاني الشعب من حرمان المصادر المالية كما يعاني البلد من عدم النموّ الاقتصادي الكافي. ويشير إلى أن السبب وراء هذه الكارثة ليس قلة المصادر المالية في الدولة ولا عدم كفاية الموارد الضرورية بل الخلل وعدم التوازن في توزيع تلك الثروة بين جماهير الشعب. لأنه توجد في البنوك في الهند ودائع من عامة الناس يبلغ قدرها ٩٣ ترليون روبية، إضافة إلى ما جُمع في البنوك التعاونية. وقد جمعت البنوك التعاونية في كيرالا فقط من السكان البسطاء مبلغا وقدره أربعة ترليونات روبية. وهذا القدر من الثروة لا يمكن أن يوجد له مثيل في أي مكان آخر. ولكن من الذي يستفيد منها؟ لم تصل منافعها إلى الجمهور كما توقعت عند تأميم البنوك في عهد انديرا غاندي عام ١٩٦٩م. إنما يستفيد منها أصحاب الشركات العملاقة. وفي أصح العبارة يجب أن نقول إن ما يقوم به هؤلاء هو النهب الصريح باحتيالهم على البنوك. واحتيال أثرياء الهنود على البنوك لا ينحصر في الهند فقط بل يتجاوز الدول الخليجية أيضا. ففي نهاية شهر ابريل الماضي قرأنا في الجرائد خبرا يفيد بأن السلطات الإماراتية قررت تجميد حسابات مليادير هندي يُدعى بي.آر شيتي مؤسس ورئيس مجلس الإدارة السابق لمجموعة «إن إم سي للرعاية الصحية»، فقد نجح المذكور بالهروب من الإمارات بأموال طائلة من بنوكها عقب أخذ قروض منها بمليارات الدولارات. ويقال إنه يواجه الآن خمس قضايا قانونية. وهي أكبر قضية احتيال مالي في تاريخ الإمارات. وتشمل قائمة الدائنين ٨٠ مؤسسة مالية محلية وإقليمية ودولية أقرضت مجموعة إن إم سي للرعاية الصحية، وربما يستثنى منها حسب تقرير صحفي بنك نزوى العماني حيث لا يمتلك أي استثمارات أو أموال مودعة مع مجموعة إن إم سي للرعاية الصحية.

حكاية صعود شيتي السريع ظريفة وغريبة. قبل ٤٣ سنة وصل إلى الإمارات من الهند وهو يحمل شهادة جامعة في الصيدلة وفي جيبه ثمانية دولارات أمريكية فقط. كان في البداية رجل مبيعات يقوم بالتجول على المتاجر والمخازن العامة لتسليم البضائع. كان راتبه في حينه ٥٠٠ درهم. ثم نمت أعماله التجارية بسرعة فائقة. وفي عام ١٩٧٥فكر في إنشاء عيادة وصيدلية حيث بدأ «المركز الطبي الجديد»، وكان فريدا من نوعه. أنشأ في عام ١٩٨٠ مركز الإمارات للصرافة (U A E Exchange) وهو واحد من أكبر الشركات العاملة في مجال تحويل الأموال في الإمارات. سرعان ما توسعت قاعدة أعماله لتنطلق من الإمارات إلى ١٥ دولة في العالم. وأصبحت شركته إن إم سي مدرجة في بورصة لندن وقيمتها السوقية نحو ٢،٧ مليار دولار.

ويقال إنه من المقربين من الدوائر الحكومية وقيادات الحزب الحاكم في الهند، وإنه الآن مشغول بتنفيذ مشاريع استثمارات كبيرة في كشمير بعد رفع الحظر عن حق ملكية الأراضي هناك لغير الكشميريين. ويُلاحظ أن كل من هربوا بالاحتيال على البنوك من الهند إلى الخارج كانت لهم علاقات جيدة مع السلطات الهندية والحزب الحاكم. وقد ازدادت حالات فضائح كثيرة من الاحتيال على البنوك في الهند، فعلى سبيل المثال قضية تاجر الألماس «نيراف مودي» وأسرته، وقضية مليادير «فيجايا ماليا» صاحب شركة طيران ونائب برلماني ينتمي للحزب الحاكم، كانتا من القضايا الشائكة التي أحدثت ضجة كبيرة في الصحف الهندية. تتوقع إدارة الضرائب في الهند أن الخسائر التي تضررت بها البنوك المحلية ستتجاوز قيمتها الثلاثة مليارات دولار نتيجة لقروض وضمانات قدمتها لشركات ألماس يمتلكها نيراف مودي وعائلته في خضم عملية احتيال ضخمة مزعومة في بنك البنجاب الوطني في القطاع العام. قدمت البنوك قروضا وضمانات بقيمة تصل إلى ١٧٦،٣٦ مليار روبية لشركات مرتبطة بمودي وعمه ميهول تشوكسي. ووفقا لشكوى قدمها بنك البنجاب الوطني، فإن أكبر عملية احتيال مصرفي في تاريخ الهند هذه شملت مسؤولين صغيرين بأحد فروع البنك في مومباي أصدرا «خطابات تعهد» لشركات مرتبطة بمودي وتشوكسي لتحصل على ائتمانات من فروع لبنوك هندية أخرى في الخارج. وهذه المعاملات الاحتيالية تمت على

مدار سنوات ويبلغ حجمها ١،٧٧ مليار دولار. إن شركة جيتانجالي التي يرأسها تشوكسي وشركاتها الفرعية كانت تتعامل مع ٣٢ مصرفا من بينها بنك الاتحاد الهندي وبنك إله آباد وبنك أكسيس، التي أسست سلسلة متاجر تابعة لتلك الشركات الممتدة من نيويورك إلى بيجنغ.

كيف يتمكن أمثال نيراف مودي وويجايا ماليا من ممارسة الاحتيال على البنوك هكذا؟ ومقدمة هذا الكتاب التي كتبها طوماس آيساك الماركسي والوزير المالي في ولاية كيرالا تؤكد أن عامة الناس لا يستطيعون خداع البنوك هكذا؛ لأن البنوك لا تُقرضهم إلا بضمان. ستكون القروض وفقا لحجم الضمان. ومن ثم ستكون لها حدود. أما أمثال نيراف مودي وفيجايا مليا فلا تنطبق عليهم هذه الشروط. لأنهم هوامير لهم نفوذ خاص في أروقة السلطة. الطريقة التي اتخذها نيراف مودي للاحتيال على البنوك بسيطة. تقدم إلى بنك البنجاب للقروض لشراء ألماس من خارج البلاد. وهو يحتاج لذلك إلى قروض في صورة دولارات في الخارج. ولكن لا يستطيع لهذا الغرض أن يتقدم مباشرة إلى بنوك في الخارج، لأن البنوك خارج البلاد لا تعرفه، فلا تتم هذه العملية إلا بواسطة بنوك موثوق بها. هنا استعد بنك البنجاب أن يكون ضامنا لنيراف مودي لسداد ديونه، وذلك من خلال «خطاب تعهد» موجه للبنك الدائن خارج الهند. اعتمادا على خطاب التفاهم (LOU) هذا أعطى البنك في الخارج قروضا لبنك البنجاب وتسلم منه مودى تلك القروض. في هذه الحالة إذا فشل مودي في تسديد الديون إنما يجب تسديدها من قبل بنك البنجاب صاحب التعهد. فلابد أن يأخذ بنك البنجاب ضمانا من مودي قبل تزويده بخطاب التعهد الموجه إلى البنك المعني في الخارج. الموظفون في بنك البنجاب لم يقوموا بهذا الواجب. فكانت النتيجة الحتمية أن يتعرض بنك البنجاب لخسائر فادحة. يشير طوماس في مقدمته إلى أن الإجراءات الانفتاحية التي بدأت في ١٩٩١ ومقترحات اللجان التي عُيّنت لهذا الغرض هي التي سببت ازدياد الاحتيالات على البنوك. قدمت لجنة «ناراسمهام» (محافظ البنك الاحتياطي السابق) مقترحات لتعديلات لازمة في لوائح تنظيم البنوك الأساسية بموجب سياسات العولمة والانفتاح، اقترحتها اللجنة لاجتناب الحكومة السيطرة على البنوك والتخلي عن الاهتمام الذي يختص بالصناعات الصغيرة والزراعة. ونتيجة لذلك أقرضت البنوك مبالغ كبيرة للأفيال الاقتصادية بينما قللت التمويل للحِرف الصغيرة من المستثمرين. أصبح توجه

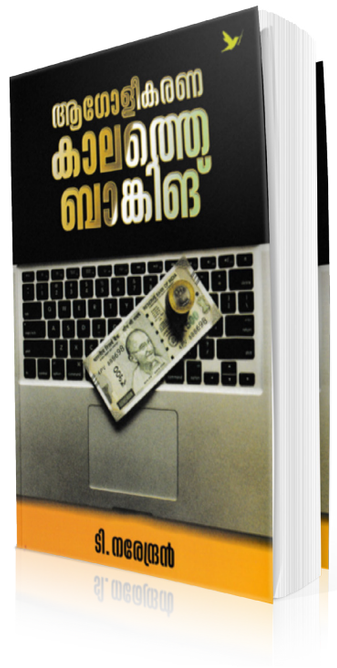

البنوك الرئيسي تحقيق الأرباح في أي شكل كان فابتعدت عن مساعدة البؤساء من الجمهور. كان من أهم اكتشافات لجنة «ناراسمهام» أن سبب ازدياد الأصول غير المنتجة هو منح القروض لمحدودي الدخل. فغدا اهتمام الحكومة بعد ١٩٩٠ خصخصة البنوك وبيع أسهمها لبنوك وأصحاب رأسمال خارج البلاد. هناك مؤسسات خاصة لمراقبة كل مؤسسة من مؤسسات مالية في الهند، فمثلا جميع البنوك تحت مراقبة البنك الاحتياطي (Reserve Bank). وشركات التأمين تراقبها هيئة تنظيم وتنمية التأمين. أما صناديق الاستثمارات المشتركة فلها مجلس الهند للأسواق والأوراق المالية. وبموجب مشروع جديد سوف تتركز مراقبة جميع هذه المؤسسات في سيطرة هيئة واحدة بسلطات واسعة. المؤسسة التي يتم تشكيلها لهذا الغرض سيكون لها حق التدخل في شؤون أي مؤسسة مالية وفي اتخاذ القرار بدمج بعضها ببعض. والجدير بالذكر أن هذا الموضوع الهامّ لم يُناقش في البرلمان كما يستحق.

السيل الجارف من الرأسمال العالمي قد أسهم كثيرا في إعادة تشكيل النظام المصرفي في الهند. المقالات في هذا الكتاب تحلل تاريخ وسياسة هذه الظاهرة وتكشف ما يجري وراء كواليس البنوك المعروفة باسم «الجيل الناشئ». وهي تعكس التغييرات الجذرية التي تطورت في أهداف البنوك وطبيعة إدارتها واهتماماتها. يشرح الكاتب كيف أصبحت البنوك في القطاع العام راعية لمصالح شركات عملاقة وكيف تساهم أساليبها المختلفة في استغلال عملائها البسطاء بازدياد رسومات خدمات متنوعة في المعاملات المصرفية ومنها الرسومات الغريبة التي يأخذها البنك المركزي الهندي، أكبر بنك في الهند، من زبونه إذا تجاوزت وديعته المرة الثالثة خلال شهر واحد. وفي مقال تحت عنوان « الهند غنية جدا» يحاول الكاتب أن يثبت أن الإصلاحات التي تم اتخاذها بعد ١٩٩١ في حقول المصارف كانت متواطئة مع الشركات الكبيرة ومعادية لمصالح الفلاحين والسواد الأعظم. وفي مقال بعنوان « عقدان ونصف من الإصلاحات في مجال الأموال» يذهب الكاتب إلى تفاصيل هذا الاتجاه السلبي بإلقاء الضوء على التقارير التي قدمتها عدد من اللجان بهذا الصدد مثل لجنة «ناراسيمهام» ولجنة «مالهوترا» والتي تقترح تغييرات هيكلية في الحقول المصرفية. وفي مقال بعنوان « ما وراء الديون المعدومة» يشير إلى أن هذه الكارثة من «إنجازات» الرأسمال المحسوبية (Crony Capitalism)، لأن البنوك قررت منح القروض لأصحاب الرأسمال الكبير بدلا من الطبقات المتوسطة. ومن خلال المقال عن دمج البنوك يثبت الكاتب أن الهدف الحقيقي وراء هذا التحرك إنما هو خصخصة البنوك وجذب الرأسمال الخارجي إلى البنوك الوطنية، ويُبرِز فيه المشكلات التي واجهها الزبائن بدمج «بنك ترافانكور» أحد البنوك الكبرى في كيرالا مع البنك المركز الهندي. ونتيجة لذلك فقَدَ كثير من العاملين فيه وظائفهم كما تم إلغاء عدد كثير من فروعه وخاصة التي كانت موجودة في المناطق الريفية.

نجد في هذا الكتاب لسانا ناطقا بعامة الناس الصامتين الذين يعانون من ويلات سياسات النظم غير العادلة في جمهورية زائفة. المقالات التي يحتويها الكتاب مكتوبة في أوقات مختلفة في الجرائد، ولكن للأسف لم يهتم الكاتب بتحريرها بحذف التكرار الموجود في تلك المقالات، و«ماتروبهومي» التي قامت بنشر الكتاب دار نشر عريقة في كيرالا، والغريب أن تكون دار نشر مثلها محرومة من محرر يهتم بهذا الجانب.

- الكتاب: "الأعمال المصرفية في زمن العولمة".
- المؤلف: تي. نارينداران.
- الناشر: Grass root - Mathrubhoomi ، كوزيكود، 2019م.
- عدد الصفحات: 109 صفحات.

* مستعرب هندي

هل الإسلام دين حرب أم سلام
القسيس بيلي كرون

التجاني بولعوالي*

هُناك من الكتاب في الغرب من لا يزال وفياً للجدل اللاهوتي التقليدي الذي كان يجري بين المُسلمين وأهل الكتاب من النصارى واليهود، لاسيما في العصرين الأموي والعباسي ولاحقاً في الأندلس.

ولعلَّ هذا هو ديدن القسيس الأمريكي بيلي كرون في كتابه الموسوم بـ: هل الإسلام دين حرب أم سلام؟ الذي يستحضر فيه الأحكام السلبية القديمة حول الإسلام والقرآن والنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ويُعيد إنتاجها بشكل غير موضوعي يتعارض والمكاسب التي حققها الحوار الإسلامي المسيحي من جهة، ونظريات التعددية والمواطنة الفاعلة من جهة أخرى. وأكثر من ذلك، فهو يحشو كتابه بشتيت من المُغالطات التي قد ينكشف عوارها لكل من يلم بأساسيات الدين الإسلامي، غير أنها في المقابل قد تشكل خطورة على من لا معرفة أولية له بالإسلام، دون إغفال كون أحزاب اليمين المتطرف والحركات المناوئة لما هو إسلامي تتغذى على مثل هذه الأفكار الهدامة.

ويظل الكتاب منذ ألفه إلى يائه مسكوناً بالتخويف من انتشار الإسلام ليس في الولايات المتحدة الأمريكية فقط، بل في أوروبا والعالم قاطبة. يستهل الكاتب مؤلفه بمجموعة من المفاهيم الأساسية التي تتعلق بالإسلام، كالله والرسول والخليفة والقرآن والجنة والنار والشيطان والجهاد والمرأة، يقوم بشرحها لقاعدته الشعبية بشكل تأويلي ذاتي يخلو من الموضوعية التي تقتضيها مثل هذه المصطلحات. ثم إنَّه يحاول تقويض أي تقارب مفهومي بين ما هو كتابي وقرآني؛ بين اليهودية والنصرانية من ناحية والإسلام من ناحية أخرى، رغم أنَّها كلها تنضوي تحت الأديان الإبراهيمية التوحيدية. لذلك نراه ينتقد بشدة مفهوم Chrislam الذي طرحه اللاهوتي ريك وارن، وهو يعني أنَّ المسيحية والإسلام يمكن لهما أن يسيرا معاً بطريقة ما، لأنَّ هناك الكثير من القواسم المشتركة بينهما. وينعت كرون هذه الرؤية بالحمق والسخافة، لأنَّ النصرانية والإسلام يتعارضان بشكل مُطلق. وسوف يتضح فيما يأتي كيف أنه يقف على طرف نقيض من ذلك التيار الفكري الذي يقدم الإسلام بشكل موضوعي ومُنصف، وعادة ما يطلق عليه حكماء الغرب الذين يركزون على القيم الدينية الإنسانية الجامعة بين الأديان والفلسفات الكونية على اختلاف أصولها ومشاربها ومعتقداتها.

وتتوزع الكتاب سبعة فصول، تناول فيها الكاتب بأسلوب نقدي وتقويضي على التوالي: تاريخ الإسلام، غزو عبر الهجرة، غزو عبر الأسلمة، أساسيات العقيدة، أركان الإسلام، الشهادة على المسلم، هل كان باراك حسين أوباما مسلماً؟ ولا يخلو كل فصل من أسلوب الترهيب من الإسلام، الذي انتشر عبر التاريخ بالسيف والقوة والغزو، وهو مرشح ليهيمن في المستقبل على الكرة الأرضية برمتها، إذا لم يستدرك المسيحيون هذا الأمر الخطير، على حد تعبيره.

تزييف حقائق الإسلام

يُؤسس بيلي كرون أطروحته المناوئة للإسلام على فرضية عجيبة يجهد في تحويلها إلى مسلمة مطلقة يقنع بها أتباعه ومريديه، وفحواها أنَّ الإسلام لا يمكن أن نعتبره ديناً مثل النصرانية التي انتشرت بروح الله، بينما انتشر هو بالعنف وعبر استعباد الناس. فالعبودية تتجذر في طبيعة الإسلام الذي يحتم على الناس الخضوع المطلق لله والقرآن والرسول. وعلى العكس من ذلك، فالنصرانية تدعو إلى المحبة والرحمة، حيث الله في مقام الأب، والابن يفدي بنفسه ليكفر عن الخطيئة الأصلية، ويخلص الإنسانية من الضلال والعذاب.

ويمضي على هذا النحو، وهو يشرّح مختلف الحقائق القرآنية والنبوية بمبضع التأويل الشخصي دون إعمال الموضوعية وتحري الحياد المنهجي. يذهب إلى أن محمدا ليس رسولا، وأنه لم يتلق الوحي من الملك جبريل، بل ويتهكم من كون أنه تلقى القرآن منجماً خلال ٢٣ عاما، وأنه حفظه عن ظهر قلب، وهو يتساءل: من منَّا يحفظ ما تلقاه قبل ٢٣ دقيقة! لذلك، فكل ما في الأمر هو أن محمدا كان تحت تأثير جني، سوف يطوره على أساس المعلومات التي كانت متوفرة في عهده عن اليهودية والنصرانية، إلى دين أطلق عليه الإسلام، وهو لا يختلف عن الأنبياء المزيفين الذين ظهروا لاحقاً، كجوزيف سميث الذي عاش في القرن التاسع عشر وزعم أنه نبي تلقى الوحي من ملك اسمه موروني، وهو يعرف بمؤسس الديانة المورمونية.

بالإضافة إلى ذلك، هناك عشرات الحقائق التاريخية واللاهوتية التي يعرضها الكاتب بأسلوب تمتزج فيه الأحكام الذاتية بالتهكم والتغليط. عندما يتناول الصدام الذي حصل بين اليهود والنبي في المدينة فهو ينتقي من المُعطيات ما يخدم خطابه الجدلي، كتغيير اتجاه القبلة المفاجئ إلى الكعبة بدل المسجد الأقصى، وتصفية اليهود، وبغض المسلمين المطلق لليهود، وهلم جرا. وهكذا يفصل المتلقي العادي كليا عن السياق الحقيقي لذلك الصراع، ولا يشير بتاتاً إلى الإطار التعددي الذي أرساه الرسول صلى الله عليه وسلم على أساس عهدة المدينة التي ضمنت حقوق الجميع بما فيهم اليهود، بل ويحرق كل الفترات التاريخية التي شهدت تعايشاً مثالياً بين المسلمين وأهل الكتاب.

وبعد مُقارنته بين نظرة الإسلام والنصرانية إلى بعض المسائل الخلافية، كصلب المسيح، وكون عيسى ابن الله، والخطيئة الأصلية، يخلص إلى أن الإسلام والنصرانية لايُمكن أن يلتقيا ويتعايشا أبدًا. إذا كان الكتاب المقدس يدعو إلى حب الأعداء، فإن القرآن يعلم المسلمين قتل كل من يقف ضد الإسلام، وذبح غير المسلمين. وإذا كان الكتاب المقدس يدعو إلى حب الجيران، فإنَّ المسلمين يؤمنون بقطع رؤوسهم. ثم إن المسيح لم يرد الشر بالشر، في حين أن إله المسلمين يحث على الحرب.

انتشار الإسلام عبر الهجرة

في تناوله لظاهرة الانتشار السريع للإسلام تاريخيا وفي المرحلة المعاصرة يعزو بيلي كرون ذلك إلى ثلاثة عوامل جوهرية، وهي: التوسع الديمغرافي والأسلمة والجهاد.

فيما يتعلق بالتصاعد العددي لديمغرافية المسلمين عبر العالم، فهو لا يني يزرع الرعب في قلوب الغربيين من تمدد الإسلام عبر القارات الخمس، ويوظف مختلف الإحصائيات لتأكيد ادعائه وتوصيل رسالته إلى القراء والمتابعين، ومنها الإحصائيات المتعلقة بارتفاع نسبة الخصوبة بين أوساط المسلمين في أوروبا وأمريكا. منذ ١٩٩٠ حقق المهاجرون المسلمون ٩٠٪ من النمو الديمغرافي على الصعيد الأوروبي. في فرنسا يتحدد معدل الأطفال لكل أسرة في نسبة ١،٨، وتصل هذه النسبة إلى ٨،١ لدى الأسر المسلمة! وتبلغ النسبة العمرية المحددة في ٢٠ عاماً وأقل لدى الأطفال المسلمين إلى ٤٥٪ في المدن الكبرى كنيس ومارسيليا وباريس. وفي حدود ٢٠٢٧ سوف يكون واحداً من كل خمسة فرنسيين مسلماً. وفي غضون ٣٩ سنة فقط سوف تصبح فرنسا جمهورية إسلامية! أما في هولندا، فإنَّ ٥٠٪ من المواليد الجدد مسلمون، وبعد ١٥ سنة فقط سوف يصبح نصف السكان مُسلمين. ولعل هذا ما ينطبق أيضًا على بلجيكا، حيث ٥٠٪ من المواليد الجدد مُسلمون، وقد صرحت الحكومة البلجيكية أنه بعد ١٧ سنة، وبالتحديد انطلاقاً من ٢٠٢٥ سوف يكون واحداً من كل ثلاثة مواليد جدد من عائلة مسلمة على المستوى الأوروبي. وهذا ما يسري أيضاً على بقية البلدان الأوروبية كبريطانيا وروسيا وألمانيا وغيرها. أما في الولايات المتحدة الأمريكية فسوف يبلغ عدد المسلمين بعد ثلاثين عامًا إلى ٥٠ مليون نسمة، وهذا ما تؤكده الأرقام الأخيرة التي تشير إلى أنَّ عدد المسلمين انتقل من ٨ ملايين عام ٢٠٠٨ إلى ١٢ مليون اليوم.

في مقابل ذلك، يذهب الكاتب إلى أن الإحصائيات المتعلقة بعدد

المسيحيين في العالم غير صحيحة، فعدد المسيحيين أقل بكثير من مليارين، لأنه ليس كل من يدعي أنه مسيحي فهو مسيحي. لذلك، فهو يدق ناقوس الخطر أمام تراجع التدين المسيحي وهجران الكنيسة. ويستشهد في هذا الصدد بالمعمدانيين المسيحيين الجنوبيين الذين تناقص عددهم من ١٦ مليون إلى ١٥،٥ مليون، وهذا العدد مرشح لأن يتراجع إلى أربعة ملايين، وبعدها إلى مليون، ثم لن يتبقى في الأخير إلا ٢٥٠ ألف معمداني مسيحي. هذا يحصل رغم الأموال الطائلة التي تصرف في بعثات التبشير والتنصير من طرف منظمة الكنائس المعمدانية الجنوبية، وتبلغ هذه الأموال حوالي ١،٢ مليار دولار.

أسلمة المجتمع الغربي

لم يكتف المسلمون الذين هاجروا إلى أوروبا وأمريكا بالعمل والعيش العادي، بل سعوا حثيثاً إلى أسلمة المجتمعات الأوروبية والغربية التي استقروا فيها. وتُنفذ هذه الأسلمة على شتى الأصعدة، من شريعة وتعليم وسياسة واقتصاد وغيرها. يذهب الكاتب إلى أن النصرانية قضت بشكل مُطلق على نظام العبودية في أوروبا وأمريكا والعالم، وخي»، وهو حرق الزوجات بعد موت الأزواج، لكن بفضل التبشير المسيحي تم القضاء نهائياً على تلك العادة. أما المسلمون المهاجرون، فقد جاؤوا بقانون الشريعة الذي يدعو إلى قتل الناس وقطع أيديهم، وهذا ما يسعون إلى استيراده وتطبيقه في أمريكا وغيرها من البلدان الغربية. فالذي يسرق تقطع يده اليمنى، والذي يرتد عن الإسلام يُقتل، والذي يشجع على ردة المُسلمين يُقتل، وغير المسلم الذي يتزوج مسلمة يُقتل، والبنات يزوجن قاصرات ويتم ختنهن بالإكراه، والمرأة يجب عليها الزواج من رجل واحد، بينما للرجل الحق في الزواج من أربع ويمكن تطليقهن متى يشاء. وللشريعة الإسلامية وجوه أخرى، حيث المرأة لا يسمح لها بسياقة السيارة، ولا يسمح لها الحديث مع رجل أجنبي، ويمكن للمسلمين الكذب عن طريق استعمال التقية، وغير ذلك من المغالطات التي لا يتسع المجال لجردها.

وتمتد استراتيجية الأسلمة إلى التعليم حيث أصبح يحق للطلبة المسلمين الصلاة والاحتفال بأعيادهم الدينية داخل عدد من المؤسسات التعليمية في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يمنع المسيحيون من الصلاة باسم المسيح. ويتم شراء ذمم السياسيين لتنفيذ مخطط الأسلمة، إذ يعتبر بيل كلنتون أول رئيس أمريكي أقام عام ١٩٩٦ مأدبة عشاء بمناسبة عيد الفطر. ثم إنّه يتم الترويج للإسلام عبر مختلف الآليات السياسية والتربوية والإعلامية، بل وحتى الموسيقى الإسلامية أصبح تأثيرها عجيبا. كما أنه لا يمكن إغفال الأسلمة الجذرية التي تشهدها السجون الأمريكية، حيث إن ٨٠٪ من السجناء الأمريكيين الذين اعتنقوا ديناً أثناء وجودهم في السجن يصبحون مسلمين.

الحل هو التنصير!

يشدد بيلي كرون في أكثر من موضع من الكتاب على أن الطريقة الأنجع للحد من انتشار الإسلام وأسلمة المجتمع هي تنصير المسلمين لا غير. ولن يتحقق ذلك بواسطة «العين بالعين والسن بالسن»، بل لا نحتاج إلى استعمال السيف كما

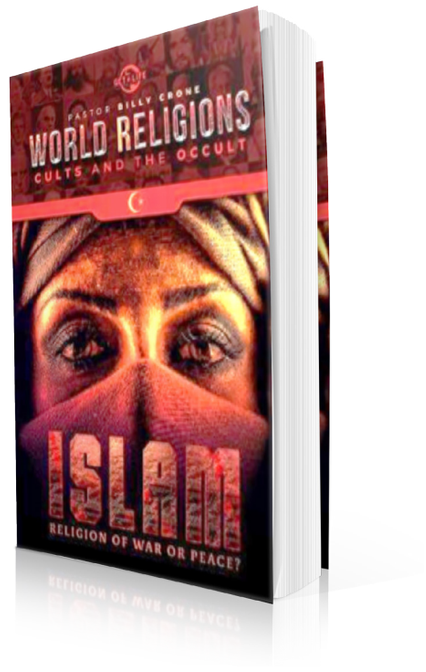

يفعلون هم؛ ما هو الحل إذن؟ إنهم يحتاجون ببساطة إلى المسيح، إلى أن يصبحوا مسيحيين؛ مسيحيين حقيقيين. ولعل الطريقة الأمثل هنا هي حب المسلمين، لأننا نحن المسيحيين مدعوون لحب أعدائنا بما في ذلك كل المسلمين. وسعيا إلى تحقيق هذا المبتغى يقترح الكاتب جملة من الآليات الدعوية لإقناع المسلمين، التي لا تختلف كثيرا عما كان سائدا لدى اللاهوتيين الأوروبيين القدامى.

يخاطب الكاتب قراءه ومريديه بأنهم أمام معركة روحية حساسة، حيث يمكن مقارنة عمل المسيحي التبشيري تجاه المسلمين بذلك الطفل، موزع الجرائد الذي عليه وضع الجرائد في مكانها المُحدد دون أن يطلب من الناس قراءتها، فنحن ننشر الإنجيل الذي يعني الخبر الجيد، ولا يلزمنا أن نحدثهم عما يجب الإيمان به أو عما ينبغي قبوله. إن المطلوب منّا هو أن نعرض عليهم هذا فقط، ثم نذهب إلى حال سبيلنا. كما أنه يجب علينا الدعاء لهم، لأننا لا نستطيع أن نغير قلب أحد، فالله وحده الذي يصنع ذلك، وهو وحده الذي ينقذ ويخلص. ثم إنه لا ينبغي لنا مجادلة المسلمين أو مواجهتهم، وإذا تكلمنا معهم علينا أن نزن كلامنا ونحدد عباراتنا بشكل دقيق، ونتفادى التحدث معهم في جماعة، بل فردا فردا.

وما دام أن القرآن الكريم يشكل أكبر تحد لأهل الكتاب عامة وللنصارى خاصة، فإن القسيس بيلي كرون يوصي المبشرين بألا يقتربوا أبداً من موضوع القرآن، فهذا لا يناقش عند المسلمين. وهذا ما يسري أيضا على القضايا السياسية والتاريخية المعقدة، كالحروب الصليبية التي يرى أنها ليست مسألة مسيحية، بل تتعلق بالدرجة الأولى بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ثم ينهي كلامه في هذا الباب بأهمية الكلام على المسيح في حضرة المسلمين، لأنهم يقدرونه إلى حد كبير.

هل باراك حسين أوباما مسلم؟

يختم بيلي كرون مؤلفه بفصل كامل حول الرئيس الأمريكي باراك أوباما محاولا إبطال علاقته العقدية بالنصرانية من جهة، وإثبات كونه في الأصل مسلما من جهة أخرى، لذلك فهو يصفه صراحة بأنه حمل في لباس ذئب مفترس! ويعتمد الكاتب في الدفاع عن فرضيته على مجموعة من التبريرات التي يفسرها كما العادة تفسيرا ذاتيا يفتقد إلى الموضوعية، ونلخص أهمها فيما يأتي:

يبرر كون أوباما مسلماً بأصله الكيني، الذي يؤكده هو نفسه في أكثر من مناسبة، ويكشف عن ولائه الكامل لوطنه الأصل كينيا على حساب الولايات المتحدة الأمريكية التي يعتبر رئيسا لها.

يفسر ولاءه التام للإسلام كونه ينحدر من عائلة كلها مَسلمة، ولا يستبعد أن يكون أوباما مسلما أيضا. ثم إنه يتعاطف كثيرا مع أخيه مالك المحسوب على الإخوان المُسلمين، الذين استقبلهم في البيت الأبيض، علماً بأنهم ارتكبوا أبشع المجازر ضد المسيحيين. ثم إن أخاه حضر مؤتمرا في الخرطوم أشرف عليه آنذاك الرئيس عمر البشير المطلوب دولياً.

يرى أن أوباما عندما يلتقي المسلمين ويخاطبهم يصرح باسمه الثلاثي الكامل (باراك حسين أوباما) ويفتخر بذلك أيما افتخار، وهذا ما يحيل على جذوره الإسلامية الحقيقية، لكن عندما يكون في مجالس غير خاصة بالمسلمين فهو يستعمل اسمه الثنائي (باراك أوباما).

لا يحضر الطابع المسيحي بتاتاً سواء في شخصية أوباما أو في خطابه، وإلا كيف يفسر اعتماده قوانين تتناقض مع المسيحية الحقيقية، فهو أول رئيس يقر زواج المثليين، ويدعم الإجهاض بميزانية ٥٠ مليون دولار لقتل الأطفال الأبرياء في الخارج حفاظاً على صحة المرأة ورشاقتها.

لا يساند أوباما إخوانه المسيحيين، فإدارته تعتبر الأكثر مُواجهة للمسيحيين في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى العكس من ذلك، فهو يتعاطف دوماً مع المسلمين ويحتفل بأعيادهم.

خلاصة القول، يمكن اعتبار تعاطي القسيس الأمريكي بيلي كرون مع الإسلام استمرارية للجدل الكلامي المسيحي التقليدي، الذي كان يهدف إلى إبطال ثوابت العقيدة الإسلامية كالله والقرآن والنبي وغيرها، ومن ثم تقويض الإسلام وإحلال النصرانية محله. وعادة ما يفتقد ذلك الجدل إلى الموضوعية والحياد المنهجي ويتضمن مختلف المغالطات التاريخية والمعرفية، ما يجعله يقف على النقيض من دعاة الحوار الإسلامي المسيحي وفلاسفة التعددية في سياقنا المعاصر.

- الكتاب: هل الإسلام دين حرب أم سلام؟
- المؤلف: بيلي كرون
- الناشر: لايف مينيستري، الولايات المتحدة الأمريكية
- تاريخ النشر: 2019، باللغة الإنجليزية
- عدد الصفحات: 180

* باحث مغربي مقيم في بلجيكا

إصدارات عالمية جديدة

آخر الإصدارات الفلسفية باللغة الإنجليزية (محمد الشيخ)

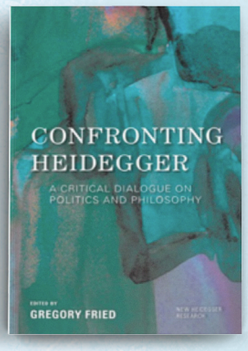

عنوان الكتاب: مُواجهة هايدجر (حوار نقدي في الفلسفة والسياسة)

اسم المؤلف: مؤلف جماعي تحت إشراف جريجوري فريد

دار النشر: روان وليتلفيلد

سنة النشر: 2020

لربما لم يوجد فيلسوف في القرن العشرين شغل موقفه السياسي الباحثين ولا زال يشغل أكثر من الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر (1889-1976). إذ صدرت العشرات من الكتب التي تناولت صلة هايدجر بالسياسة ولا زالت تصدر. آخرها هذا الكتاب الجماعي. ذلك أنَّه كان "زلة عالِم" من هايدجر أن ينتمي إلى الحزب النازي في الثلاثينات من القرن الماضي، بل حتى أن يُغازله ويباركه في بعض خطبه. لكن بعض تدوينات هايدجر في ما بات يُعرف باسم "الدفاتر السوداء" وَشَتْ بالعكس؛ إذ في الكثير من فقراته ينتقد الحزب النازي وزعيمه نقدًا مرًا. ما تميز به هذا الكتاب عن الكتب الأخرى التي تناولت هايدجر والسياسة، أنه جاء عبارة عن حوار بين مختصين. ذلك أنَّ الفرنسي إمانويل فايل كان قد اشتهر بأطروحته المهلهلة التي تذهب إلى أنه: "ما كانت فلسفة هايدجر سوى إدخال للنازية إلى الفلسفة ليس إلا". وهنا يشرع باحث آخر متخصص في هايدجر ـ جريجوري فريد ـ في محاورة إمانويل فايل حول ما ذهب إليه. ثم سرعان ما يلتحق باحثون آخرون من المتخصصين في فكر هايدجر ـ ريتشارد بولت، ماثيو شارب، ديبتر توما، وليام ألتمان، سيدوني كيلرر، بالمناقشة، كما يتصدى الباحثان اللذان افتتحا النقاش بالإجابة عن تساؤلات أولئك الباحثين واعتراضاتهم. وقد دار النقاش في مجمله على أربع قضايا أساسية: كيف فهم هايدجر نفسه النازية؟ وهل حياة مفكر وأفعاله بإمكانها أن تفسر معنى عمله؟ وكيف أمكن لهايدجر أن يعتقد في النازية وأن ينتقدها في آن؟ وما الذي حمل الفلسفة ـ المعروفة بطابعها "العقلاني" ـ على مغازلة نزعة "غير عقلانية"؟

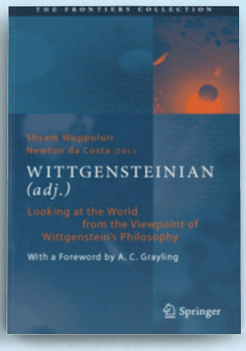

عنوان الكتاب: فيتجنشتايني (النظر إلى العالم من منظور فلسفة فيتجنشتاين).

اسم المؤلف: كتاب جماعي تحت إشراف سايام ووبولوري ونيوتن دا كوستا ...دار النشر: سبرينجر

سنة النشر: 2020

ثمة بين الكتاب الأول الذي قدمناه عن هايدجر وهذا الكتاب عن الفيلسوف النمساوي لودفيج فيتجنشتاين (1889-1951) تعالق. ذلك أن الفيلسوفين عدًا بحق أعظم فيلسوفين أنجبهما القرن العشرون، ولا يزال تأثيرهما غامرًا على الفكر الفلسفي المعاصر. يكفي الاطلاع على ببليوغرافيا ما ينشر عنهما في ما يكتب في الفلسفة اليوم للاقتناع بذلك. على أنهما قد سارا بالفلسفة المعاصرة مسارين متباينين، بل وحتى متناقضين. وبالنسبة إلى فيتجنشتاين، فقد اهتم بكتاباته الشديدة التشابك والتشذر والتعقيد العديد من الباحثين، من علماء رياضيات وفيزياء وفلاسفة ولسانيين وعلماء اقتصاد وعلماء نفس وعلماء أنتربولوجيا وغيرهم. وهذا الكتاب يلملم أشتات هذه الأنظار في فلسفة هايدجر من زاوية مخصوصة هي زاوية العلم ورؤيته للعالم. ولذلك ضم الكتاب إسهامات لأهل العلوم والفلسفة سواء بسواء في بيان أوجه التآثر ـ التأثر والتأثر ـ بين فلسفة فيتجنشتاين والعلوم الحديثة والمعاصرة.

آخر الإصدارات في اللغة الفرنسية (سعيد بوكرامي)

الكتاب: الرأسمالية بلا منافس: مستقبل النظام الذي سيحكم العالم

المؤلف: برانكو ميلانوفيتش

الناشر: دار لاديكوفيرت

تاريخ النشر: 2020

عدد الصفحات: 304 ص

بعد شرح منحنى الفيل الشهير في علم الاقتصاد الذي تدرس بواسطته التفاوتات العالمية، يركز برانكو ميلانوفيتش هنا على الاتجاهات الرئيسة التي تُشكل مصير العالم. يحلل ديناميات الرأسمالية، النظام الذي يُهيمن الآن دون مشاركة أو مُجابهة. بعدها يقوم الكاتب بمواجهة نموذجين، الرأسمالية الليبرالية (الأمريكية) والرأسمالية السياسية (الصينية)، ليبرز انجرافهما، أحدهما نحو إغناء الأثرياء والآخر نحو الرشوة والفساد الإداري المُتزايد.

تعتمد الحجة على وضع الكثير من البيانات الإحصائية في منظورها الصحيح وعلى معرفة جيدة جدًا بالتاريخ. خلافا لتوقعات الماركسية القديمة، فإنَّ ما يُسمى بالأنظمة "الشيوعية"، هي أكثر فاعلية حيث كانت البلدان في الأصل أقل تطورا وهيمنة، جعلت الانتقال من النظام الإقطاعي إلى الرأسمالية ممكنًا، تتمثل إحدى المُساهمات الرئيسة لهذا الكتاب في توصيف الرأسمالية السياسية أو الاستبدادية وهو نظام يتميز بأنَّه قطاع خاص مهيمن ولكنه تحت السيطرة السياسية، ويتسم ببيروقراطية فعَّالة في خدمة النمو، وغياب سيادة القانون وبتناقضات (النخبة التكنوقراطية مقابل السلطة التقديرية؛ والفساد المستشري مُقابل شرعنة السلطة).

يعتقد الكاتب أنَّ المستقبل سيكون قاتما إذا استمرت الاتجاهات الحالية (البلوتوقراطية" أي حكم الأثرياء"، وتسليع جميع مجالات الوجود، والفساد، واجتياح العولمة). سيتطلب جرأة كبيرة للعبور نحو أفق أكثر إشراقًا يشترط سياسة راديكالية للحد من مظاهر اللامساواة.

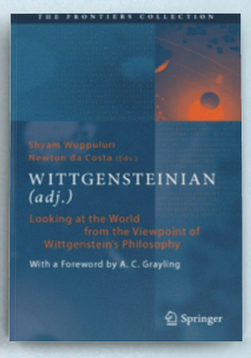

عنوان الكتاب: فلسفة المُعاناة (الميتافيزيقا والقيمة والمعيارية)

اسم المُؤلف: مؤلف جماعي تحت إشراف دافيد باين وميخائيل برادي وجينفر كورنز

دار النشر: راوتليدج/ تايلور وفرانسيس

سنة النشر: 2020

من البيّن أنَّ المُعاناة تشكل جزءًا لا يتجزأ من حياة البشر. إذ كثيرا ما نعاني من الألم، ونكابد مع السقم. وعادة ما نفشل في حياتنا، فنقاسي مرارة الفشل. ومثلما نشهد على المعاناة في ذواتنا، فإننا نشهد عليها كذلك في أغيارنا: يمرضون، يفشلون، يموتون؛ فنُعاني من أجلهم ما عانوه، كما يعانوا من أجلنا ما عانيناه. لكن، هل المُعاناة كلها "نقمة"؟ أم أنها قد تكون أحيانًا "نقمة" في طيها "نعمة"؟ يحاول هذا الكتاب تناول هذه المسألة، وهو يُقدم لنا فحصاً شاملاً لأمر المُعاناة والمقاساة والمكابدة هذا من وجهة نظر فلسفية، وقد طرحت فيه الأسئلة المُشْكَلة التالية: ما طبيعة المُعاناة؟ وما طبيعة الألم؟ وهل للمعاناة والمقاساة من قيمة؟ ولئن كانت، أهي قيمة إيجابية أم سلبية؟ وما علاقة المُعاناة بالأخلاق وبالعاقلية؟

إصدارات عالمية جديدة

آخر الإصدارات في اللغة الفرنسية (سعيد بوكرامي)

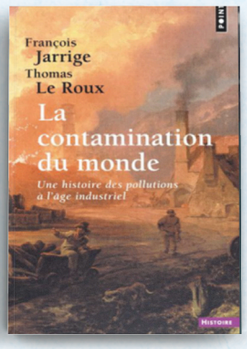

الكتاب: تلوث العالم، تاريخ التلوث في العصر الصناعي
المؤلفان: فرانسوا جاريد وطوماس لورو
الناشر: بْوان، سلسلة الجيب، فرنسا
سنة النشر: 2020
عدد الصفحات: 665ص

كان التلوث في السابق مصدرًا للتلوث المحلي، يُمكن معالجته واستدراك عواقبه، لكن اليوم تحولت تأثيرات الأنشطة البشرية على البيئة إلى تلوث عالمي. إن تقديم سرد لتاريخ التلوث على نطاق العالم يجعل البشرية في جبهة واحدة ومصير واحد، لهذا يجب التخلي عن الدهشة أو الإحباط لمُواجهة عملية تدمير بيئي يبدو أنه أصبح حتمياً ولا مفر منه. لأن الحركة الرهيبة لتلوث العالم التي انفتحت مع التصنيع الهائل هي قبل كل شيء حقيقة اجتماعية وسياسية، تتميز بدورات متعاقبة، وصراعات على السلطة، والثروات، والتحولات الاجتماعية والثقافية. يحلل هذا الكتاب الصراعات وتنظيم القوة في العصر الصناعي، ولكنه يحلل أيضًا الديناميات التي شكلت الحداثة الرأسمالية وتصوراتها لتحقيق مزيد من التقدم حتى ولو كان على حساب البيئة الآيلة للزوال والكائنات الموعودة بالانقراض. إننا نعيش مراحل مفصلية يتم فيها تغليب منطق المنفعة والأنانية والجشع وعدم الاستقرار مما يضع البشرية أمام خيارات أمن بيئي واستدامة صحية ضئيلة بل وشبه مُنعدمة.

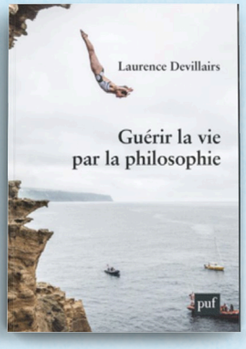

الكتاب: الفلسفة شفاء للحياة
المؤلف: لورانس دوفيلير
الناشر: بيف. فرنسا
سنة النشر: 2020
عدد الصفحات: 264ص

ماذا بمقدور الفلسفة أن تفعله لعلاج أمراض العصر؟ هل يتجاوز اختصاصها اختصاص الأطباء والمُعالجين النفسيين والجراحين. تجيب الكاتبة بأنَّ الفلسفة تشفي الحياة، لأن العيش اليوم ليس سهلاً، وليس من المُؤكد أننا مسلحون كفاية من أجل خوض غماره العسيرة. الحياة ليست رياضة تزحلق، ما عليك سوى أن تترك نفسك تنساق وتذهب. إن الوجود الراهن يتطلب شجاعة. إنَّ مواجهة الواقع واللامبالاة والظلم والتفاهة تتطلب مهارة مكتسبة من الفكر اليقظ والإيجابي.

ثم إنَّ المُواساة لم تعد تكفي. نحتاج إلى علاج، ودواء. ليس ما يدعو إلى حلول سهلة، ولكن الذي يجعل مُواجهة العواصف واختراق الأعاصير أمرا ممكناً. هذا هو العلاج الذي تُقدمه الفلسفة. هي لا تقتل. بل تجعلك أقوى، لمواجهة آلام الجسد والروح، والشيخوخة، والإرهاق، والإدمان بجميع أنواعه، وضعف الإرادة والرفقة السيئة، والحب وأحزانه، والمال، ومشاكل الحي أو الأسرة أو المكتب، والغيرة أو الوحدة. من مونتين إلى نيتشه إلى هيجل وديكارت، واجهت الفلسفة كل شيء، وسعت إلى شفاء كل شيء.

آخر الإصدارات في اللغة الإيطالية (عزالدين عناية)

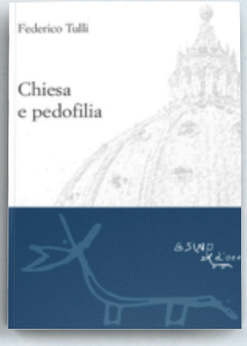

الكتاب: الكنيسة والاعتداء على القاصرين
تأليف: فيديريكو توللي.
الناشر: منشورات لازينو دورو (روما) باللغة الإيطالية.
سنة النشر: 2020.
عدد الصفحات: 223 ص.

الكنيسة والاعتداء على القاصرين
فيديريكو توللي كاتب إيطاليّ متخصّص في التحقيقات الميدانية. في كتابه هذا يتعرّض إلى مسألتين رئيستين: العوامل الراهنة التي جعلت موضوع الاعتداءات الجنسية على الأطفال يفلت من الرقابة الكَنَسيّة المعهودة، ويخرج من التعتيم إلى العلن؛ ثم في جانب آخر من الكتاب يعيد الكاتب بناء وقائع الاعتداءات وما دار حولها من حيثيات، معتمدا في ذلك على أسلوبه المميز في رصد الظواهر.

الكتاب: جرشوم شولام معلّم القابالاه
تأليف: دافيد بيالِه.
الناشر: دار كاروتشي (روما) "باللغة الإيطالية".
سنة النشر: 2019.
عدد الصفحات: 211 ص.

جرشوم شولام معلّم القابالاه
يُعدّ جرشوم شولام (1897-1982) من أعلام الفكر اليهودي في إسرائيل، وقد حاز صيتاً واسعاً على نطاق عالمي بفضل دراساته التأصيلية في الموروث الديني العبري. لكن الإسهام الأكبر لشولام في مشاركته في إنشاء الجامعة العبرية في القدس وفي تمثيله للصهيونية الثقافية. يحاول الكاتب دافيد بيالِه كتابة سيرة شولام بأطوارها الثقافية والسياسية معتمدا أسلوب المؤرخ في رواية الأحداث.

تصفّح النسخة الرقمية .. مجلة التفاهم

عنوان العدد: الفرد والجماعة ومشكلات الاختلال العالمي

عبدالرحمن السالمي

المحاور

- **الإنسان والكون والاستخلاف في القرآن الكريم نحو رؤية إسلاميّة متوازنة** ... عبد المالك أشهبون
- **الرُّؤَى اليونانيّة للعالم ومنزلة الإنسان** ...عبد الرزاق بلعقروز
- **الإتيقي والسياسي في الفلسفة اليونانيّة** .. معز مديوني
- **حالة الأزمة في العالم المعاصر وإلى أين يتّجه العالم والإنسان؟** .. فتحي المسكيني
- **الإنسان والعالم: تصوّرات الفلاسفة المعاصرين (مارتن هايدغر، غونتر أندرز، بيتر سلوتردايك)** - محمد الشيخ
- **نظريّات التنمية وأسباب التأزّم: دراسة نقديّة** عبد السلام نوير
- **إشكاليّات الدِّين والعلمانيّة والدولة المعاصرة في ضوءٍ جديد** ... رضوان السيد
- **ما بين الهويّة والشّعبويّة: جدل الهبوط والصعود في قيم الانتماء في العالم المعاصر** - أحمد زايد
- **الدولة - الأُمّة؛ قضاياها وتحوّلاتها المعاصرة** محمد نور الدين أفاية

دراسات

- **المعرفة والتُّراث العلمي في الإسلام ما قبل الحديث: إرثٌ فركيٌّ في مجال التقاطع بين التعليم والدِّين** - سيباستيان غونتر
- **مسألة العدالة عند الفارابي وأبي الوليد بن رشد: دور النفس في القول الفلسفي العدْل** - يوسف بن عدي

وجهات نظر

- **مقد الإغاثة في الإسلام: نظرةٌ في المقوِّمات والأُسس** - محمد المنتار
- **العلمانيّة: مخاض التاريخ ورؤى الحاضر والمستقبل** - برّاق زكريّا

آفاق

- **المؤتلف الإنساني ونقد سياسات الهويّة** ... طارق متري
- **إسهام لاهوت الأديان في بناء المؤتلف الإنساني** .... عز الدين عناية
- **المؤتلف الإنساني: رؤية كونيّة** ... محمد الشيخ
- **القيمة والحق وتداوليّة المؤتلف الإنساني** ....رضوان السيد

ترقبوا العدد الجديد من

مجلة التفاهم

عنوان العدد: **الوضع العالمي والرؤية الأخلاقية**

الآية:

"وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ"

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها

مجلة التفاهم هاتف : 24644031 – 968 24644032+ , فاكس : 968 24605799+

البريد الإلكتروني : www.altafahom.net – al.tafahoom@gmail.com – tasamoh@gmail.com